رحلتان إلى الحجاز ونجد

محمد بهجة البيطار
1920

محمد سعود العوري
1929



اعتنى بهما : تيسير خلف



رحلتان
إلى الحجاز ونجد

رحلتان إلى الحجاز ونجد

محمد بهجة البيطار 1920

محمد سعود العوري 1929

اعتنى بهما تيسير خلف



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني- الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص.ب 11418

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo.com

رحلتان

إلى الحجاز ونجد



محمد بهجة البيطار — 1920

محمد سعود العوري — 1929

اعتنى بهما : تيسير خلف

التكوين



تقديم

لسنا في حاجة إلى تبيان خصائص أدب الرحلات، لأن ما كتب عن هذا الصنف من الأدب كثير كثير، ولكننا نود أن نشير إلى أن الرحلات إلى أرض الحجاز جد كثيرة، والباعث عليها أداء فريضة الحج. ولكن القليل من هذه الرحلات تم لأسباب أخرى، مثل الرحلة التي قام بها علاّمة الشام الكبير محمد بهجة البيطار عام 1920م ، والذي زار الحجاز ومشارف نجد بمهمة وطنية سياسية لمقابلة العاهل السعودي الأمير عبد العزيز آل سعود [آنذاك] وتبليغه رسالتين: الأولى من المصلح الإسلامي الكبير محمد رشيد رضا، والثانية من الأمير فيصل بن الحسين حاكم الشام آنذاك، حول توحيد كلمة العرب والمسلمين لمواجهة المخاطر الخارجية. وقد صادفت الشيخ البيطار مشاق جمة وصفها في رحلته، وهي صعوبات تتعلق بانفلات الأمن على طريق الحاج، وتحكم روح الغزو ومنطق السلب والنهب بالكثير من الأعراب.

وهذا الوصف الذي قدمه الشيخ محمد بهجة البيطار كان آخر العهد بهذه الفوضى التي نشبت في جزيرة العرب منذ مطالع العهد العثماني، عندما نزعت السلطنة في الأستانة من أيدي زعامات العرب التقليدية جميع الامتيازات التي منحتها دولة المماليك لهم، إذ كانوا في دولة المماليك أصحاب سلطة فعلية وألقاب شريفة ومخصصات معتبرة، ولذلك كان الأمن

مبسوطاً في ربوع الجزيرة بما فيها بادية الشام، وكان طريق الحاج آمناً من تعديات المتعدين، ولكن السلطنة العثمانية بنزعتها المركزية، وبعدم تقديرها لطبيعة أهل البادية وخصوصيتهم، ومحاولاتها المستمرة لتحطيم البنى التقليدية للزعامات التاريخية، التي تحتل في نفوس أهل البادية معان كبيرة، ساهمت من حيث تدري أو لا تدري بخلق حالة الفوضى التي استمرت عدة قرون، ولم يقيض لها أن تنتهي إلا في الثلث الأول من القرن العشرين، في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، عندما بسطت الدولة السعودية نفوذها على نجد والحجاز.

ولذلك شكلت هذه التجربة مصدر سعادة للكثير من العرب، وخصوصاً في بلاد الشام، الذين كانوا في ذلك الزمن أي في عشرينيات القرن العشرين، يتطلعون إلى بناء كيان عربي مستقل يشمل فيما يشمله الجزيرة العربية والهلال الخصيب، حيث كانت أنظار الزعامات الوطنية والدينية ترنو إلى جزيرة العرب، منتظرة أن يكون زعيم العرب أجمعين من هذه البلاد الشريفة، ولم يكن مستغرباً أن ينظر الكثيرون إلى الملك عبد العزيز آل سعود كمعقد أمل ورجاء في زمن تكالبت فيه المطامع الغربية على المنطقة العربية، وهذا ما نلمسه بشكل واضح وجلي في الرحلة الثانية التي يضمها هذا الكتاب، وهي رحلة الشيخ محمد سعود العوري قاضي القدس الشريف، الذي حج إلى الأراضي المقدسة في الحجاز عام

1929م مكرساً جانباً مهماً من حديثه عن مزايا وخصال الملك عبد العزيز، الذي كان يمثل بالنسبة أشبه بمخلّص للعرب من واقعهم المظلم، مشدداً في كل حديث له على ضرورة توحيد كلمة العرب، وإيجاد مرجعية عليا لهم، تشبه الاتحاد. خصوصاً أنه من أبناء فلسطين الذين كانوا يرون الصهاينة يقضمون الأرض شيئاً فشيئاً تحت نظر الانتداب البريطاني، الذي كان يوفر الحماية لهم.

وتعلق أهل الشام بزعامات الجزيرة العربية في ذلك الزمن لم يكن محصوراً بأشخاص معينين، بل كان يشكل مصدر إجماع بين جميع أطياف العمل السياسي، ولكن الخلاف كان على الأسماء، فهناك أحزاب كانت تؤيد أشراف مكة، وأحزاب أخرى كانت تؤيد السعوديين، ففي سورية كان الخلاف بين الزعماء الوطنيين في العشرينيات والثلاثينيات أيام الانتداب الفرنسي، على اسم زعيم سوريا المستقبلي: هل هو أحد أشراف مكة أم أحد أبناء الملك عبد العزيز آل سعود، إذ كان الزعيم شكري القوتلي من أبرز المنادين بتسلم الملك فيصل بن عبد العزيز الحكم في سوريا بعد أن تصبح مملكة دستورية، في حين كان الحزب المنافس له يدعو للهاشميين؟.

ولذلك فالرحلتان اللتان يضمهما هذا الكتاب، يضافان إلى جملة الوثائق التاريخية التي تخص تلك المرحلة الحساسة والمفصلية من تاريخ العرب الحديث، ويصوران بشكل أو بآخر

حقيقة المشاعر والتطلعات التي كانت تشغل أبناء الشام في تلك الحقبة الخطيرة.

صدرت الرحلة الأولى في دمشق عام 1967م أي بعد كتابتها بنحو 47 سنة، وقد ذكر الشيخ البيطار أنه تركها كما هي لم يغير في صياغتها شيئاً «لتبقى لها صورتها الأولى ولتحمل جوها الأصيل». في حين صدرت الرحلة الثانية في القاهرة عام 1930م في المطبعة السلفية بعد أن نشرت على حلقات في جريدة «الصراط المستقيم». كما أشار إلى ذلك الشيخ العوري في معرض حديثه.

ورغم التفاوت بين الرحلتين من حيث الأسلوب وسعة الأفق، إلا أن ما يجمعها أنهما يخصان عالمين من بلاد الشام، كانت لديهما رؤية متقاربة لواقع ومستقبل العرب والمسلمين في ذلك الوقت، على الرغم من أن عقداً من الزمن يفصل بين الرحلتين، وهو عقد شهد تحقق المشاريع الاستعمارية الغربية في بلاد الشام على أرض الواقع، وتقسيم هذا الإقليم العربي إلى سبع دول مختلفة، قبل أن تتحد أربع منها في الدولة السورية.

ولم نتدخل في صياغات الرحلتين، وما فعلناه فقط هو تخريج الآيات القرآنية الواردة في النصين، كما عرفنا ببعض الأسماء الواردة قدر المستطاع.

تيسير خلف

دمشق 10 شباط 2009م.

الرحلة النجدية الحجازية

صور من حياة البادية

1338هـ . 1920م

بقلم

محمد بهجة البيطار الدمشقي

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، نحمده ونشكره. ونتوب إليه ونستغفره، ونصلي ونسلم على من أرسل رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلى سائر إخوانه الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد، فلما انقضى عهد الحكومة التركية في ديار الشام وحلت محلها الحكومة العربية الأولى التي ترأسها الأمير فيصل بن الحسين، قبل أن يصير ملكاً دعا إليه الإمام السيد محمد رشيد رضا من مصر ليكون عوناً له في الشؤون العربية والإسلامية، فكان منهما أن عزما إرسال كتاب يسلمهما مع رسولين أمينين يبلغان رسالتيهما كتابة ومشافهة إلى الأمير عبد العزيز آل سعود في نجد، قبل أن يكون ملكاً أيضاً. وهما يدعوان إلى نصر الإسلام وعقد اتفاق عام بين جميع أمراء الجزيرة العربية وأئمتها الكرام دفعاً للعدوان الأجنبي. وتم اختيارهما لهذا الضعيف ليبلغ الرسالة الدينية التي كتبها السيد محمد رشيد رضا صاحب «المنار»، وللأخ شلاش النجدي الذي كان مؤتمن الأمير فيصل لإيصال الرسالة السياسية. فسافرنا بمشيئة الله متوكلين عليه، مسلمين أمرنا إليه، ولقينا من المخاطر والأهوال ما تشيب له النواصي وكنا نحتسب ذلك عند الله، ونرجو أن يكون ذلك جهاداً في سبيله، وابتغاء رضوانه ومثوبته. ويجد القارئ وصفاً لذلك كله في

مذكراتي هذه المفصلة عن هذه الرحلة التي مقدت خمسين يوماً .

وقد أشار علي بعض الإخوان بنشر هذه الرحلة لطرافتها وتصويرها الواقعي الأمين لفترة مضطربة رهيبة من حياة الجزيرة العربية كانت تختطف فيها الأرواح وتسلب الأموال وتنتهك الحرمات، ولتذكير المسلمين بالخط الحديدي الحجازي الذي يربط بين الأقطار ويقرب الأمصار، عسى أن يكونوا أكثر جداً في تجديده، وأوفر حرصاً على إعادته لفوائده الروحية والاقتصادية والاجتماعية وقد آثرت أن تطبع الرحلة كما كتبت أول مرة ولم أعمل فيها يد التنقيح أو التهذيب لتبقى لها صورتها الأولى ولتحمل جوها الأصيل.

وفي آخر الرحلة ثلاثة كتب مهمة في موضوعها، ورأيت أخيراً أن أكتب ترجمة موجزة لحياتي وألحقها بها والحمد لله رب العالمين

محمد بهجة البيطار

يوم السبت في 8 جمادى الثانية عام 1338هـ «1920م»

باسمه تعالى وبحمده

سرنا على بركة الله ويمنه، وسار بنا القطار الحجازي الخاص من «محطة القنوات» في دمشق الشام، الساعة الثالثة وعشر دقائق صباحاً، ومررنا بالمحطات[1] التالية

«الكسوة» في الساعة الرابعة والدقيقة العشرين،

«دير علي» الساعة الخامسة، ثم «المسمية» في الساعة الخامسة والنصف، وقد شاهدنا بها آلة ميكانيكية لاستخراج الماء، وفيها ماء عذب خفيف

«جباب» الساعة السادسة ولم نقف عندها. أما في المحطات الأولى فقد وقفنا في كل منها بضع دقائق

«خبب» في الساعة السادسة والربع، ثم «المحجة» بعد ربع ساعة، ثم «إزرع» في تمام الساعة السابعة، ثم «خربة الغزالة» في السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين وهي أول قرية اجتمعنا فيها بإخواننا الميدانيين[2]، ثم وصلنا إلى «درعا» الساعة الثامنة، وهي أرقى من كل ما سبقها من المحطات، وأبنية الحكومة فيها فخمة، وقد تجولنا فيها قليلاً ولم

---

[1] بالوقت الغروبي لا الزوالي

[2] نسبة لحي الميدان الدمشقي

تتيسر لك زيارتها كلها، ولا زيارة جوانب الميدانيين فيها،
وفيها نزل للطيب، وقد أنسنا فيها بلقاء أبناء عمنا الأفندية
حمدي وبشير وفهمي، وجلسنا عندهم نحو نصف ساعة
وابتعنا من مخزنهم وغيره بمقدار مائتين وخمسين قرشاً، وابن
عمنا حسني أفندي هو محتسب جوار الآن سلمهم الله وفي
درعا فرع للخط من جهة الغرب إلى حيفا

وتابعنا سيرنا فبلغنا «المفرق» في الساعة الحادية عشرة
والدقيقة الخامسة عشرة وقد شهدنا ثم بعض آثار المعارك
الدموية الهائلة التي جرت في تلك البقعة بين العرب والترك،
من عظام بالية وقطارات معطلة وحسبنا مجريه
فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبلغنا «خربة السمرا» الساعة الثانية عشرة مساء، ثم
«الزرقاء» في الساعة الواحدة ليلاً، وهي قرية يسكنها
الجركس، والذي شهرت به هو عينها الشهيرة بعين
«الزرقاء» وهي نهر في الجنوب الغربي ويمتد من البلقاء إلى
بحيرة لوط[3] ثم «عمان» الساعة الثانية ليلاً وفيها آلة
ميكانيكية لاستخراج الماء، وقد تناولنا في المحطة طعام
العشاء، وشربنا الشاي والقهوة، ودار بيننا حديث في أخلاق
الحجازيين والشاميين والنجديين، واتفقنا على أنه لا معصوم
إلا من عصم الله ثم بتنا ليلتنا في القطار، وقد حللنا في

---

[3] ي البحر الميت

صدري هذه الأبيات التي وجهت بها إلى صديقي الأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي مدير مدرسة التوفيق وهي

«فاتحة القول»

دروسك يا عبد الحكيم فاستمع ... وبادر إلى توفير مال بها يفي

وإن شئت أن تحيا عزيزاً مكرَّماً ... فكن رجلاً في كل حال وموقف

«دمعة حب ولوعة شوق»

أتذكر إذ ودعتكم ظهر «جمعة» ... وحُيّيك يا هذا لقد كان متلفي

ونيران شوقي بعد بُعدي وغربتي ... أثارت لهيباً في الحشا ليس ينطفي

«الدواء الناجع»

لئن كنت يا خلي، وابهجة مهجتي ... مشوقاً كشوقي مع مزيد تلهف

فسدك من أصحابنا من يدينه ... ولو شوق يعقوب إلى شخص يوسف

«خاتمة القول»

سلام على أهلي وصحبي ومعهدي ... على بعدهم عني مزيد تأسفي

سأذكرهم ذكراً حثيثاً يهزني ... سريعاً إلى دار الكمال لمشرف

يوم الأحد في 9 جمادى الثانية عام 1338هـ

صلينا فريضة الفجر مع الإخوان في المطار، ثم تجولت في المحطة ورأينا فيها منشآت الحكومة، وهي أرقى من كل ما سبقها من عند درعا ودون. موظفي الحكومة مبنية كلها بالقرميد والحجر، فوق سفح الجبل بناء هندسياً، وفيها نُزُل لطيف مشتمل على غرفتين للمنام، وحجرتين للطعام، وفيها

قطار معطل مع شاحناته اشترينا منها بمائة قرش طعاماً، وبارحناها في الرابعة والدقيقة العشرين صباحاً.

جرى القطار بنا بعد عمل قليل في نفق بعض الجبل نحو دقيقتين، ومررنا على جسر القصر، ثم بلغنا «القصر» الساعة الخامسة والنصف، ثم «أُنَيْز» الساعة السادسة وربع، ثم «الحيرة» الساعة السادسة والنصف وفيها آلة ميكانيكية لجر الماء، ثم «صبيغة» في الساعة الثامنة والدقيقة العشرين، وقد لقينا فيها شيخاً من عرب بني صخر واسمه الشيخ لسطل، وقدم لنا جرعة من اللبن، ولم يقبل الثمن، ودعانا لتناول الطعام عنده فشكرنا له، وهو محافظ المحل هناك، وأعراب بني صخر منتشرون من حدود عمّان إلى المطرانة، وقد رأينا بعضهم في الطريق.

ثم «حان الزبيب» الساعة التاسعة. ومن عجيب ما رأينا في هذا المكان في بركة ماء توضأنا منها حيات ماء بحجم سلك الكهرباء، قد انتظمت في بطنها حبات سوداء بمقدار العدسة، وتبلغ الحية طولاً أكثر من عشرة أذرع ممتدة في الماء بشكل خطوط مستقيمة، ومنكسرة، ومتجهة، فسبحان الخلاق العظيم.

ثم «سوقة» الساعة العاشرة وعشر دقائق، ثم محطة القطرانة الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق وفيها آلة ميكانيكية لإخراج الماء وحمله إلى الحراقات، وقد لقينا فيها الأستاذ فارس الذي كان معلم الإنكليزية في «المدرسة

الكاملية»، وهو موظف في إدارة الحكومة، وسألني عن كتب نافعة له في الدروس العربية والأدبية، فذكرت له ما حضرني، وعرفني بحضرة المهندس المقيم هناك خليل بك المقدسي فحصلت بيننا المعرفة والأنس، وكتبت هناك مكتوبين أحدهما لآلي، والثاني لأخينا الطرابلسي وسلمتهما لدائرة البريد، وبتنا في المطرانة وحملوا معهم الأخشاب والحديد والرمل والبرين لإصلاح السكة الحديدية في عدة مواضع.

يوم الاثنين في 10 جمادى الثانية عام 1338هـ

تحرك بنا القطار الساعة الثالثة صباحاً، فبلغنا «منزلة» الساعة الرابعة ثم «فريفرة» الساعة الخامسة، ثم «الحسا» الخربة الساعة السادسة، ثم «جروف» الخربة الساعة الثامنة ثم «عنيزة» الخربة الساعة التاسعة، ثم «وادي الجردون» الساعة العاشرة وخمس دقائق، ثم «معان» المغرب وكان القطار يقف بنا في الطريق وقوفاً طويلاً، لإصلاح ما تعطل من السكة الحديدية، وقيده من قبل المهندس خليل بك الذي ركب معنا هو ومعاونه رمزي أفندي التركي من أجله، واستقبلنا في معان الشيخ إسماعيل بك القزاز قائد الحملة هناك، وهو رجل مكي الزي والأصل يحسن اللغة التركية، ثم دعانا فتناولنا طعام المساء عنده، وبتنا ليلة الثلاثاء في القطار بمحطة معان.

يوم الثلاثاء في 11 جمادى الثانية عام 1338 هـ

تجولت صباح الثلاثاء في قرية «معان» التي هي في غرب الخط على مسافة نصف ساعة منه، وهي منقسمة إلى قسمين «جنوبي» يسمى «معان المصرية» وشمالي يسمى «معان الشامية» وبينهما مقدار ربع ساعة، وفي كل منهما مكتب بسيط وغالب بائعيها من أهل مكة المكرمة، وقد تناولت الشاي في دار شاب نجيب من أهل «المدينة المنورة» واشتريت منها طعاماً بأربع ليرات عثمانية ذهباً.

وقد قضينا يوم الثلاثاء في «معان» منتظرين حمول القطار، التي جهزها بما يلزم لتصحبنا إلى «مدائن صالح» ثم إلى «المدينة المنورة» وتناولنا الطعام مساء عند القرار أيضاً، فحياه الله، ثم بتنا ليلة الأربعاء في قطار بمعان أيضاً.

يوم الأربعاء في 12 جمادى الثاني عام 1338هـ

جرى بنا القطار الساعة الثالثة من صباح الأربعاء صحبة رفقائنا من دمشق، وهم الشيخ شلاش العقيلي النجدي من قرية «بريدة» وقرينه الشاب عبد الله النجدي من قرية «الرّس»، وهما رفيقا نجد والشيخ محمد أمين الربو التاجر المدني، وسليمان بن زيد وأصله نجدي من «قرية حائل» وهما يؤمان البلد الطيب، وقد صحبنا حمول القرار، وهم ثمانية نفر ومعهم زاد السفر، وقد تدججوا بالسلاح،

حماية لأنفسهم ولنا من اعراب تلك البطاح، ولم يتيسر لنا أن نجتاز سحابة ذلك النهار أكثر من ثلاث محطات، تبلغ 55 كم، وهي من معان «464» كم من الشام، إلى غدير الحاج «480» كم إلى بئر الشُدَيّة «492» كم إلى العقبة «519» كم، وكلها مواقف حربية عظيمة مدافع الحرب، وسبب هذا البطء إحصاء جسور الخط العامرة والخربة، وأخذ ارتفاعها، ومعرفة أبعادها، وكذا منشآت الحكومة، وبيان ما تخرب منها وما يلزم لإصلاحه وصرف نقف عند الجسور والأمكنة الخربة وقوفاً طويلاً وحضرة المهندس يفصل القول في ما يكتبه تفصيلاً، فأدركنا الغروب في «العقبة» وبتنا فيها ليلة الخميس في 13 جمادى الثانية عام 1338هـ . وقد تعطلت بعض آلات القطار فأصلحها السائق صباح الخميس.

يوم الخميس في 13 جمادى الثانية عام 1338هـ

سار بنا القطار الساعة الثانية صباحاً واجتزنا في هذا النهار أربع محطات مسافتها «56» كم، وهي وادي الرتم، وتل الشحم، والرملة، والمدوّرة. وقد بتنا ليلة الجمعة في المدورة وكان سبب تأخرنا وبطئنا ملاحظة الأمكنة المعطلة من جهة وبعض الرمال عن السكة من جهة ثانية، وأول هذا الرمل الذي صادفنا في المدورة وخربة بين وادي الشحم وبئر هرماس، على مسافة عشرة كيلومترات من كل منهما.

واقعتنا مع الأعراب من بني عطية

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نشب

في الساعة الثالثة والنصف «وقت الظهيرة» من هذا اليوم الخميس 13 جمادى الثانية 1338هـ نفرت بين تل الشحم والرملات «551 - 560» كم، فئة قليلة من الأعراب راكبين فوق ظهور الأينق والأباعر، حاملين البنادق على أكتافهم، والمسدسات والمدى بأيديهم فوجهوا سلاحهم أولاً نحو رئيس الحركة، وهددوه بالقتل إذا هو لم يقف، فوقف القطار مضطراً

لم يكد يقف القطار عن الحركة حتى انقضوا علينا منحدرين كالسيل الجارف، والبرق الخاطف، وهم يقولون «وش علومكم. وش عندكم احنا ما نبغي غير الذهب» فقال لهم بعضنا نحن جماعة من الجنود والشيوخ نحمل المكاتيب من رؤساء العرب، ومن سمو الأمير فيصل، لنوصلها إلى سمو الأمير علي في المدينة المنورة من أجل إصلاح الطريق وتمشية القطار، وحفظ حقوقكم ونصركم وإن في ذهاب القطار بين المدينة المنورة ودمشق حاملاً للمسافرين آمنين مطمئنين فيه على أنفسهم وأموالهم. من الفوائد لكم ما لا يخفى عليكم

قال بعضهم هذا الكلام وباب القطار يحميه رجل منا، وباقي الجنود يتهيؤون لحمل بنادقهم وسائر سلاحهم للدفاع. وإذا بعضهم يقول «افسحوا افتحوا لنرى من في القطار» وأنزلوا حارس الباب عنوة وأخذوا الشيخ شلاش النجدي إلى مكان

معنا ودار بينه وبين بعضهم حديث، وتسلق بعض عفاريتهم
سطح القطار وكسر نوافذ الزجاج ودخل شاهراً السلاح،
وكسر الآن زجاج النافذة الشمالية ودخل، ثم هجم آخرون من
الباب وبأيديهم المسدسات والمدى، فقال لهم أحد الجنود: يا
بني عطية ستندمون على هذا العمل، وستحرمون حقكم في
المستقبل ولكنهم أخذوا يعملون بلا مبالاة، ويختارون ما خف
حمله وغلا ثمنه بحالة مخيفة مرعبة ووجوه وأزياء تقشعر
منها الأبدان وساعة رهيبة يشيب لهولها الولدان. ووجدوا
معي شيخاً ضعيفاً من عرب «عنزة» فقال بعضهم بصوت
عال «حامد» وقال الآخر حامد بن عبد الله فقالوا اقتلوه،
فصوّب بعضهم البندقية لقتله ومدّ الآخر المدية لذبحه فقلت
«آه» لا تقتلوني، وليس لكم ثأر عندي ثم سلبوه اثنين
وأربعين جنيهاً ذهباً إنكليزياً وأربعة وتسعين مجيدياً، وشبرية،
ومحزوم بارود وحق «ذهبه» مجيدي ? ونصف وثلاث عبي
«40 مجيدي»، وعقال عدد 1، وثوبين باليين

وانبعث إليّ شقي منهم فسلبني أربعين جنيهاً عثمانياً
ذهباً، وعدداً من المجيديات، ونقوداً صغيرة، ولم يبقوا عندي
شيئاً من النقود لا فضة ولا ذهباً وسلبوني عباءتي وعقالي
وجبتي وقنبازي وحاكيتي وزنارين ولم يبقوا على بدني غير
السروال والقميص والصدرية وأصابني من جراء ذلك برد
شديد، وألم في معدتي عظيم، وعاود سلبي ثلاث مرات
أحدهم كان يهوي بالمدية علي ويحاول بها قتلي ويقول لي
أين الذهب؟ يريد بذلك إخباره عن مقدار ذهبي وذهب غيري

حتى يتم نهبهم أخذه بسهولة، قلت لهم أنتم معشر هذه أول مرة حللت فيها أرضكم يا بني عطية، وكنا نظن أن إيقافكم لنا بهذه السرعة، من أجل إكرامنا، واعتبرتنا ضيوفاً عندكم كما هي عادة العرب الكرام، ولكنكم أوسعتمونا سلباً ونهباً، وإهانة وسباً، فحبستم رجالنا فيكم وتركتمونا لا زاد ولا طعام ولا نقود، وبيننا وبين الجهات التي نقصدها أيام، فأين الكرم، والإباء والشمم، أهذه هي عادة العرب الكرام؟ ألا وإنكم ستندمون على ما فعلتم بنا «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» ولكن أولئك السفهاء الجهال، كانوا من الذين يعبدون الدرهم والدينار، فلم يردوا لي غير الجفوة والإنكار!

ما سلبوه من رفقتنا في الرحلة

- الشيخ شلاش النجدي، مائة ليرة ذهبية، فروة ثمينة قبدار، بندقية، محزم مملوء خرطوش، شداد.

2 - الشيخ محمد أمين المدني، ثلاثمائة جنيه ورقاً، وأمانات وغيرها بمقدار مائتي جنيه.

3 - الشيخ عبد الله النجدي، عباءة قنبار، حذاء، ثوب جديد غير مخيط، عقالان، 3 قمصان، لباسان، وواحد وعشرون مجيدياً.

4 - سليمان النجدي من حائل، مسدس إنكليزي، 6 دلال قهوة كبيرة نحاس، ستون مجيدياً، خرطوش، عشرون مشطاً، عباءة، عمامتان، ثوب، عقال.

ما سلبوه من أصحابنا جنود إسماعيل بك القزاز

1 ـ عبد الله كلش الضابط المكي 3 بدلات عسكرية قميصان من المصانع، صوف 2، عمامة زرق 2، حزام أسود، 3 سراويل، 13 جنيهاً من الذهب الإنكليزي، نصف جنيه مصري، عقال، حذاء «ستون» جديد، جوارب زوج عدد 2 «32» مجيدياً أمانة، تنكه سمن أمانة الجند، دخن عدد 2

2 ـ الوكيل بشير حسن المكي 6 جنيهات إنكليزية ذهباً عباءة كيبسية، عقال، 6 أثواب زرق 5 عرقيات، قمصان، 7 سراويل.

3 ـ العريف حسن جبيني التاسي، عباءة أميرية، عقال، كبود إنكليزي، سترة ومعطف، 3 جنيهات إنكليزية.

4 ـ الجندي اسكندر الكردي، ليرتان عثمانيتان ذهباً، كبود إنكليزي، بطانيتان، كمر شامي، كعبة سوداء

5 ـ الجندي سليم الشامي 3 جنيهات إنكليزية ذهباً، 6 مجيديات، عباءة إنكليزية معطف «كبود» إنكليزي، بنطلون وسترة، بطانية، حطة، عقال.

6 ـ الجندي أحمد المغربي كبود إنكليزي عباءة عسكرية، بطانيتان عرقيتان «قميصان»، ثوبان ازرقان، 3 سراويل، حزام ملابس

7 ـ الجندي محمد نجم 7 قمصان 4 سراويل ثوبان من الخام، 3 حزامات مشكلة، 3 طاقيات حزام 19 مشطاً

خرطوشاً، كمر قطن، كبود ـيرة عثمانية ذهباً 5 ليرات إنكليزية ذهباً معطف وسروال، «سترة وبنطلون»

8 الجندي حسن الشامي بدالة، كبود، بصابية

9 ـ داود ضابط الرهط الثالث، لحاف، 3 بطانيات، كميتان، حذ « «كندرة»، 17 جنيهاً إفرنجياً، نصف جنيه ورقاً، بدلتان قماش، تنكة سمن، مسلح، عقال 4 سراويل، 4 ثياب

10 ـ الجندي حسن كُسلي بن سليمان 3 جنيهات إنكليزية ذهباً، كبود إنكليزي، مشلح، 3 أثواب.

11 ـ الجندي حمي علي عيتاني: عباءة، مشلح، بطانية، جنيهان إنكليزيان، 4 مجيديات.

12 ـ الجندي أمين عبي الهدي: 5 جنيهات إنكليزية، ثوب، قميص، أغراض أميرية، خرطوش

وتقدر خسائر حضرة المهندس وسائر الموظفين بمئة جنيه على الأقل، عوض الله المصابين خيراً وعلى السالبين الظالمين من الله ما يستحقون.

وعميد هذه العصابة الظالمة «محمد بن دغيمان من السبوت»، «وسليمان من جماعة حمود بن فرحان» كما أخبرنا بذلك خويا حامد العربي، ومن ريب أمر هذه الفئة الشقية أن سالب رفيقنا «شلاش» منها، هو الذي للشيخ شلاش عليه اليد البيضاء، فقد أخرجه من السجن مرتين

وما أكثر نزول هؤلاء الأرذال عند الفرار ضيوفاً وحيث القرز أصحابنا هم الذين يقدمون لهم الطعام ويقومون

بخدمتهم، وهم يعرفونهم فرداً فرداً ومن أصحابنا الجنود من أقام عندهم أولئك القرود مدداً طوالاً اشتغلوا عندهم بها رعاة وخداماً

فيالله من هؤلاء اللئام من أفسد ودهم، وما أنقض عهدهم، وما أشد غدرهم وكيدهم، ساق الله لهم من جنوده من يرغم أنوفهم ويخضع شياطينهم، وما هو من الظالمين ببعيد.

يوم الجمعة في 14 جمادى الثانية عام 1338هـ

مشينا صباح الجمعة من المدورة 3 محطات، وهي حالة العمرة، ذات الحد، بئر هرماس، ومسافتها «60» كم «577 - 637» وسبب هذا البطء شغل بإزاحة الرمل عن طريق السكة، وما أكثره ثمّ

يوم السبت في 15 جمادى الثانية عام 1338هـ

توجهنا صباح السبت الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة من بئر هرماس، فقطعت بسرعة زائدة الحرم، والمحطة، ووصلنا «تبوك» بسلام الساعة السادسة، وساغ لنا الشيخ شلاش منها عباءة، واجتمعت فيها بصديقنا الشيخ عبد القادر البوشاهرلي، وهو مدير تلك الناحية، وقد تناولنا طعام الغداء «رزاً ولحماً وبقطيناً» في دار «حلوي» أحد أجواد «تبوك» وكان المدعوون أكثر من خمسين رجلاً ثم خصص

«تبوك» مع صديقنا «البوشاهرلي» فإذا شجرها النخيل ويقدر بنحو ثلاثة آلاف شجرة على أقل تقدير. وفيها قليل من شجر الدراق، والليمون الحلو، والعنب، والتين. وأهلها أهل بادية. ورأينا العين التي زادت ببركة النبي صلى الله عليه وسلم، وشربنا من مائها العذب، وبضرب قلعتها التي بناها السلطان سليم، وجددها السلطان محمد سنة 1064هـ [1653- 1654م]، وهي قلعة مبنية بالحجر، تبلغ مساحتها نحو أربعين ذراعاً في أربعين طولاً وعرضاً، وفيها حُجر وغرف صغيرة مهجورة. وفيها مدفعان قديمان يقال إنهما من زمن السلطان سليم، وقد أصلحهما الترك أيام الحرب.

وأدينا في مسجدها صلاة الظهر مؤتمين بالإمام الشيخ عبد القادر، أنا ورجلان آخران ورأيت فيها اثنين من جنود المدينة المنورة بعثهما على إصرار الشوق لأهلهما في سورية والقلة والجوع في الحمدية شأن العسكر العربي من ثمّ المنقطعين على الطريق، حسبنا الله ونعم الوكيل. وشعرنا من «تبوك» بتغير الطقس، وشدة الحر. وتوجهنا منها باسم الله قاصدين الحجر «مدائن صالح» الساعة الثامنة والنصف بعد الظهر فقطعنا باقي النهار «60» كم من «697- 757»، وبلغنا «المستبقعة» الساعة الحادية عشرة والنصف مساء وهي من حدود بني عطية، فهي أول حدهم «القطرانة»، وآخرها «المعظم» قبل «الحجر» وقد أنشدت ليلة الأحد في «المستبقعة» مقطاريا:

وليل قضيناه بأرض عطيه — بقرب من الأعداء، أقبح من ليل

طويل بداك حتى ليلة خائف — يهدد فيه بالثبور وبالويل

فلما بدا وجه الصبح جرى بنا الـ — ـقطار بهاتيك الأباطح كالسيل

يوم الأحد في 16 جمادى الثانية عام 1338هـ إلى 21 منها

تحرك بنا القطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح الأحد، ووصلنا «الأخضر» الساعة الثالثة، وقرأنا على حجر هناك أن السلطان سليم خان بنى هذه «القلعة» في شوال سنة 938 [هـ 1532م] وهي في غرب «الأخضر» ووصلنا بحوله تعالى وحده «المعظم» آخر حدود بني عطية الساعة الخامسة صباحاً، ودخلنا في حدود «عرب بلي» وشيخهم «حمد بو شامه» فنسأل الله السلامة وقد رأينا في هذه المحطة دوائر الحكومة، فإذا هي خمس مبانٍ، وفي كل دار عدة حُجَر، وأرضها من المرمر، ولم تنل منها يد التخريب والتدمير ما نالت من غيرها في سائر المحطات التي يقدر ما ضاع فيها بمئات الألوف من الجنيهات، فاللهم ألهم المسلمين صبراً، وعوضهم عن أموالهم خيراً

الساعة الثانية الرهيبة

ـــن لذعتـــه حيـــه مـــره   أصـــبح مـــذعوراً مـــن الحبـــل

دخـل الخـوف القلـوب، واسـتولى الرعـب علـى النفـوس، وصـرنا نخضـع لتـأثير الـوهم، الحبـال جمـالاً، والغـزال غـزواً والجنود من الهنود أعراب، بعض أولئك الخاهير السالبين، وإليك مثالاً مما اتفق لنا من ذلك:

لم يكد يعدي المعظم إلى مخشم صنعاء مسافة «26» كم «832-858» حتى جاءتنا الأخبار بأن الأعراب قد أناخوا على جانب السكة في «دار الحمر» على مسافة «27» كم منا فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير

فجرى بنا القطار سريعاً، وظننا يهب المقاور نهباً، ولكنه لم يجر بضعة كيلومترات، وبعض الجنود فوق سطح القطار لينظروا من يبعد إلينا من قمم الجبال، أو يظهر لنا من وراء الآكام والرمال، أو يخرج من بطون الأودية والأوكار، حتى أرسل المهندس إلى الشيخ شلاش يقول: نرى عن بعد رجالاً قريبين من السكة، ونرى آثار أقدام مواشيهم، فهل نوقف القطار، أو نستمر على سيرنا؟ فأجابه الشيخ شلاش بأن لا نؤخذ ثانية على غرة كما جرى لنا في تلك المرة، فالأولى أن نوقف القطار ونحيمهم بعددنا وعددنا. فخرج الجنود شاكي السلاح، وصعدوا سطح القطار مستعدين للكفاح، وطفقوا ينشدون السراب البعيد، وينادون العدو الذي لا يسمع ولا يجيبه وقد كثر الصخب والنداء وطنوا به أرجاء الفضاء

حتى ظننا أن توسطنا جمعاً من الأعداء. ثم مشى بنا القطار على هذه الحال، من الرجيف والوجيف، والنعط والصريخ، حتى بلغنا دار الحمراء، وحمدنا الله تعالى على السلامة.

وأقبل علينا هنالك بدوي يرعى إبل عرب عنزه، فطفق قومنا يسألونه عن مواطن العرب، وهل هم في غب عنا أو قرب، وقد عرفه خوينا حامد ابن عبد الله وبعد العناق والتقبيل، أخبره خوينا الخبر وقص عليه القصص. ثم أرسل بنا الشيخ شلاش يقول هنا نلقي عصا التسيار، وننزل نحن ومتاعنا من القطار، فنزلنا وأنا ثالث الرفيقين «شلاش وقريبه عبد الله» في هاتيك الأرض المترامية الأطراف للصحراء، وودعنا الجنود وسائر الأخوان بالبكاء، وكل منا يدعو لصاحبه بالسلامة، وجرى القطار بهم قاصداً المدينة المنورة، واستأجر الشيخ شلاش من راعي الإبل جملاً لحمل أثقالنا إلى حضرة الشيخ سلطان الفقير العربي المسحي، شيخ عرب «عنزة» الذي هو على مسافة ثلاث ساعات من دار «الحمراء»، من جهة الشرق الشمالي، ودفع له أجرة جمله ليرة ذهباً وزاده مجيديين إكراماً له، فطابت نفسه، وتهلل وجهه، وسقانا من حليب ناقته، ومشى الجمل أمامنا وجرينا نحن وراءه في جبال متصلة بعضها ببعض، على أشكال مختلفة وهي ناتئة مائلة مختلفة الحجوم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، ولكن حصباء تلك الأرض دقيقة جداً، وكأنها الدرر بين أبيض وأحمر،

والسود والحمر، وأرضها كلها ذات رمال، بين هاتيك الجبال
ولم نزل جادّين في سيرنا حتى بلغنا منزل الشيخ بعد الغروب،
ومعنا رفيقنا حامد العنزي، فاستقبلنا الشيخ بالمصافحة،
والمشايخ الثلاثة بالتقبيل والمعانقة، وسلامهم لطيف بسيط
مشتمل على العناق والتقبيل، وينادي بعضهم بعضاً بالأسماء
مجردة عن الكنى والألقاب، وقد سمعت أحد صبيانهم عمه
حامد الشيخ الذي يناهز السبعين، يقول له كيف أنت يا حامد
عساك طيب يا حامد. وفي نحو الساعة الثالثة ليلاً قدّم لنا
الشيخ الطعام من الرز واللحم، والطعام كان كثيراً جداً، وقد
أكل معه من لا أحصيهم عداً، فحيّا الله الكرم العربي

وهذه القبيلة ديّنة، وقد أدينا مع كثير منهم صلاة العشاء
وشيخهم سلطان الذي هو عميدهم يخاف من الله عز وجل
ويحب أهل العلم والفضل، وقد سُرّ مني كثيراً والتمسوا مني
أن أكون عندهم خطيباً، على أن يقدموا لي كل ما يلزم
ويعاملوني كما يعامل أهل العلم، ويزوجوني بنتاً من كرائم
بناتهم، فشكرت فضلهم وشهامتهم، واعتذرت لهم بأني
خطيب ومدرس في الشام، وبأن خطيبتي هناك قريبتي.
وأقمنا عند الشيخ وفي ضيافته خمسة أيام، مشمولين بالخير
والإنعام، وسررنا هناك بلقاء الشيخ محمد رميح التاجر
النجدي، وكنا نكثر من التردد إلى خيمته، وكان يحبني ويكرم
وفادتي كل مرة، وأكثرت هناك من الوعظ والإرشاد والدعوة

إلى الاتحاد ونزع الضغائن والأحقاد، وأسفت هم سوء نيات الأجانب نحو المسلمين عامة والعرب خاصة، فتحمسوا ودعوا بالنصر والفتح المبين للإسلام والمسلمين.

«سلمت الشيخ محمد زميع مكتوباً ليوصله إلى أهلنا في الشام، وتركنا عند الشيخ سلطان صندوق الثياب لبقى عنده أمانة إلى رجوعنا فنستلمه إن شاء الله».

يوم الجمعة في 22 جمادى الثانية عام 1338هـ

وفي صباح هذا اليوم ودعنا الشيخ سلطان، ومضينا «خوين» متجهين جهة الشرق، على ظهور الإبل. وعند الغروب وصلنا أرض أخيه مصعب شيخ «الإخوان» الذين لا يشربون الدخان، وتناولنا طعام المساء عند الشيخ النبهي. وقد تبادلنا البحث معه في مسائل الإسلام والإيمان، وكيفية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام وحكم استعمال الدخان، والهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإيمان ومتدت المذاكرة بيننا إلى الساعة الثامنة ليلاً، وقد تفهمنا في كل هذه الأبحاث والشيخ مصعب كان إذا رأى أن الصواب في جانبي يرجع إليه، وقد ودعناهم صباح السبت في 23 جمادى الثانية عام 1338هـ».

الساعة الثالثة المشؤومة

وصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

ركبنا صباح هذا اليوم وأخذنا في السير جهة الشرق، وبعد الظهر هبطنا وادياً وجلسنا فيه جلسة لطيفة للراحة، ولم نكد نركب الإبل حتى انقض علينا من سفح الجبل ستة من العبيد السود راكبي الخيل، مزنرين بأمشاط الخرطوش وعلى أكتافهم البنادق فضلاً عمّا حملوا من البنادق بأيديهم، وفي أثناء ذلك الطراد واللحاق التفت أحدهم إلي، ووجّه بندقيته نحوي، محاولاً قتلي فنزلت بسرعة عن جملي، ثم جالوا جولة حولنا وأخذوا بأطرافنا محاولين سلبنا، ووقع بصر رفيقنا شلاش على عميدهم، فقال له: رفيقنا أحثيم لأحدنا أم لدعوتنا وأن عندنا اليوم عند عمك «هديبس الهزاع» فالتفت ذلك إلى جماعته وقال لهم «عُرف يا عيال»، ثم سلّم بعضهم بعضاً عناقاً وتقبيلاً، وجلسوا حلقة مستديرة «يتناشدون العلوم» وجلست أنا في ناحية منفرداً، ثم ركبوا وركبنا وشرقوا وغربنا واجتمعنا هناك برجل يقال له «صالح» من عرب «هتيم» قد شهد الحالة، فهنأني وقال لي كل صدفة بسلامة يا خطيب، فقلت في نفسي لا أكثر الله من أمثال هذه الصدف، وقال آخر لولا المعرفة لأخذنا وقال آخر الحمد لله على نجاتك منهم، وقد وقاك الله شرهم، فقلت له: ولماذا قصدوني قصداً خاصاً، وماذا كانوا يريدون أن يفعلوا بي، فقال: إنهم كانوا يحاولون قتلك، أو لم تنظر كيف سدّ كبيرهم البندقية عليك، فقلت: يا سبحان الله ولماذا؟

أكان لهم ثأر عندي، أم لكوني غريباً هنا لهم لدي أشرتم علي
به وهم يأبونه، أم ماذا؟ فقال بعضهم: ظنوك بعصابتك
البيضاء أحد سدية وأولئك يستجيرون سفك دماء هؤلاء،
وهؤلاء يثأرون لأنفسهم منهم. فقلت لهم: ألم تشيروا عليّ أنتم
بوضع العمامة بعد نزعها وتقولوا إنا قد دخلنا أرض المدينة؟
اللهم إني خرجت في أمر المدينة وخصومهم، ووضع العمامة
ونزعها، والله إني أبرأ إليك من استحلال سفك الدماء،
بمجرد اختلاف الأزياء. وقال آخر: إنهم ظنوك تاجراً سري
أهل العلم، فقادهم إلى ما حملك الله تعالى منه طمعهم في
المال. قلت: ولكنهم لم يجدوا مني أدنى صعوبة ولا مقاومة
فكان حسبهم أن يسلبوني مالي ويطلقوا سبيلي. قالوا: إن
وفرة المال تغريهم بقتل الرجال، حتى ينطمس الأثر، ويعدم
الخبر! قلت الحمد لله الذي لم أكن موضع ظنهم، ولا هدف
سهمهم، وهو اللطيف الخبير. وقد كانا نحو عطية شر المال
ولم يبقوا معنا درهماً ولا ديناراً. وكان أصابني تورم في رجلي
من المشي ووجع أليم من الركوب. وأضيف إلى ذلك هذه
الخطوب، مع تغير الطعام والشراب والملبس والأصحاب
والمركوب، فعظم الأمر علي، وجالت الدموع في عيني
وحنت بي من الغربة الموحشة، ومن هذه الصدف المدهشة،
ونزلت بعد ساعة عند أخوينا الحديد «صالح» من «هتيم»
فاستلقيت على الطراحة، وجلس العرب حولي وهم يسلمون
ويتكلمون، وأنا غير شاعر بما يقولون.

يوم الأحد في 24 جمادى الثنية عام 1338هـ إلى 26 منها

وفي صباح هذا اليوم ركبت «مع حوبت صالح» ومعه حوي عنزي اسمه «مسلم» و حتر السمر لي نحد «حوسا العنزي سلطان» سمي شيخهم سلطان المقير، وفي مساء اليوم وصلنا إلى الشيخ «سعد» ابن عم الشيخ سلطان، وبقيت في ضيافته ثلاثة أيام، ووجدت قومه يقيمون الصلاة، ويسألون عن أحكام الزكاة كجماعة الشيخ سلطان وهم يسألون عن حكم استعمال الدخان، ويذكرون تحريم المتدينة له، واحتقارهم لشاربه، وكانت دارت مذاكرة بيني وبين بعض محرميه من المتدينة المعتدلين الذين لا يشربونه ولا يؤذون على شربه أحداً، ويعبدون الله لا يشركون به شيئاً فذكر لي من دلائل تحريمه عنده كونه من الإسراف، ومسكراً من الخبائث، فذكرت له جواب مبيحيه. وهو أن الإسراف أمر نسبي غير محدد في الشريعة وأن ما يكون إسرافاً في حق إنسان، يعد تقتيراً بالنسبة إلى آخر، فمن تحقق فيه معنى الإسراف بسبب شرب الدخان فإنه يحرم عليه.

وأما قياسه على الخمر في الإسكار فذاك قياس مع الفارق، والله تعالى يقول في الخمر ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ

عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[4]، والدخان لم يتحقق فيه وصف من هذه الأوصاف، فهو لم يوقع بين شاربيه ولا غيرهم العداوة والبغضاء ولم يصد شاربيه عن ذكر الله ولا عن الصلاة بل في شاربيه العلماء والصالحون، والقول بتحريمه قد أوقع بين المسلمين من العداوة والبغضاء أكثر من شربه. وأما كونه من الخبائث فهذا غير متفق عليه، وشاربوه لا يعدونه كذلك، على أنه لو ثبت خبثه فما كل خبيث محرم، وقد ورد أن البصل والثوم شجرتان خبيثتان ولم يقل بتحريمهما أحد. فتبين أن الخبائث المحرمة هي المنصوص عليها في مثل قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾[5] الآية. قلت له: ولو سلمنا جدلاً أن الدخان محرم كالخمر فكان لك في تحريم الخمر في كتاب الله عز وجل ما يدعو إلى حسن الأسوة، والخمر قد ورد النهي عن شربه تدريجاً فنهي الناس عنه أولاً إذا أرادوا الصلاة، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[6] ثم جاء التذكير بمضاره في قوله ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر

---

[4] سورة المائدة، الآية 91.

[5] سورة المائدة، الآية 3.

[6] سورة النساء، الآية 43.

ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[7] ثم جاء التحريم القطعي لشربه بعد أن سهل عليهم تركه في قوله تعالى ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[8]، فانتهى الناس عن شربه وكسروا الدنان التي كانوا يحتفظون بها فأنت ترى أن الخمر الذي اشتد ضرره، وخبث ثمره، قد حرمه الله تعالى، على يد النبي عليه الصلاة والسلام، تحريماً تدريجياً، بآيات في القرآن، جارية على سنته تعالى في تكميل الإنسان، بتصحيح عقائده، وإصلاح أعماله فلو أنكم جريتم على هذه السنة، ودعوتم إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة، لأطفئت بينكم وبين خصومكم هذه الفتنة، وأسبغ الله عليكم النعمة، نعمة التأليف المذكورة في قوله تعالى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[9] فتقبل هذه النصيحة بقبول حسن، وقل إنها وإن كانت غالية الثمن، فلقد شغفها العمل بها، وسترى إن شاء الله حسن أثرها وتتلذذ باقتطاف ثمرها إن شاء الله تعالى.

---

[7] سورة المائدة، الآية 91

[8] سورة المائدة، الآية 90

[9] سورة آل عمران، الآية 103

ثم قلت وعندي ن الراي المناسب لترك الدخان هو ن تتفق مع الآباء على منع أولادهم من شربه، ومنعهم إياهم من مخالطة شاربيه، فإن شرب الدخان ليس ضرورياً ولا فطرياً للإنسان، وشاربوه يدركون ضرره في أجسامهم وعقولهم وأموالهم أكثر من غيرهم، ولكن العادة هي التي سهلت شربهم له، وتمكنت من نفوسهم بطول الزمن أما أولادهم فليسوا كذلك فلو لوحظوا من قبل المرشدين والخطباء، والآباء، وذكر لهم ما في الدخان من الضرر والكراهية شرعاً وطبعاً، لأصبح أولئك الأطفال يكرهونه أشد الكراهية، وينهون عن شربه، ويدعون إلى تركه، وبذلك يبطل شربه أو يخف جداً، ويقل عدد الشاربين له، ويكون لكم بذلك إن شاء الله الأجر العظيم، فأبدى شكره وارتياحه لما قلت، ووعدني بالعمل وفقه الله وإيانا لما يحبه ويرضاه.

يوم الأربعاء في 27 جمادى الثانية عام 1338هـ

ثم استأنفنا السير صباح هذا اليوم على بركة الله عز وجل وحسن تيسيره فأدركنا المساء عند بعض العرب ولم نصادف بحمد الله شيئاً.

يوم الخميس في 28 جمادى الثانية عام 1338هـ
الساعة الرابعة المشؤومة

ثم استأنفنا السير صباح هذا اليوم، وفي وقت الظهر، أطلق علينا بعض الأعراب الرصاص من وراء حجر، فانطلق «حويشان صالح الهيتمي» نحوهم يلوّح بهم بطرف عباءته ويصفّر لهم «إشارة إلى أنهم أصحاب» ثم أطلقوا علينا الرصاص المرة الثانية والثالثة واشتد الأمر، وحمي الضرب، فانطلق «حويشان سطام العنزي» ببندقيته حتى وصل قريباً من صخرة كبيرة، فأناخ عندها، وحمى بندقيته، ووجهها عليهم يحاول رميهم، فنهيناه، ونادى بعض أصحابنا ألا لا يفعل. ثم جاء «حويشان الهيتمي» بعد مذاكرة معهم، وقد نجانا الله تعالى منهم

خلاصة أحوالنا من 16 جمادى الثانية عام 1338 إلى 3 رجب الفرد 1338

طعامنا: إما أرز وفوقه لحم مطبوخ على أصول البدو، أو رز وحده والسمن والمريس باللبن يصبونه بإناء فوق الدست الكبير، ثم يستديرون حول الدست ويجلسون في الغالب القرفصاء، ونمد الأيدي العامرة المشمّرة إلى المرافق إلى الأرز ويأخذون منه ملء الكف والأصابع ثم يرصونه رصاً محكماً حتى يصير كالقنابل اليدوية، ثم يمدون الأصابع التي

تحمـل الأرز إلى وعـاء لـسمن يغمـسونه بهـا، ثـم يحرجونـه

ويأكلونه هنيئاً، ويشربون بعد الطعام حليب النوق بوعاء كبير

مرتباً وكنت حملت ملعقة من لشام، فأضاعها أحد رفقائي

في لطريق أيام ركوبنا في امطار، فاهداني الشيخ سلطان

المقير شيخ عنزة ملعقه من نحاس، وأخرى لأكل بإحداهما،

فإذا ضاعت أكلت بالثانية، وأهديته بيت أقلام وفيه أقلام

«مراسم»، وورقاً وظروفاً. ثم أضاع إحدى الملعقتين رفيقنا،

ومنعني الأكل بالثانية وقال لا يجوز أن تأكل بالملعقه بعد

اليوم، حتى نرجع من نجد، قلت: ولماذا؟ قال أما العرب من

أهل البادية فيظنون انك جاسوس من قبل الإنكليز فضحكت

كثيراً، وقلت له: الأكل بالملاعق وغيرها عادة أكثر أهل الحضر

وليست من خصائص الانكليز ولا غيرهم من أمم العرب

وللجاسوس علائم وأمارات يعرف بها غير الأكل بالملعقة فأي

ارتباط ومناسبة بين الأكل بالملعقة وهذه التهمة؟ قال هم لا

يفهمون غير هذا قلت له فهمنا حال البداوة فما بال

الحضريين ينكرون؟ قال أولئك يعدّون الأكل بغير الكف

والأصابع بدعة، قلت البدعة المذمومة في الشرع، هي التي

تخل محل السنة وتبطلها والسنن ما كانت من جنس

المفروضات والواجبات، كما ترى في سنن الوضوء والصلاة

والصيام مثلاً، وما يظهر فيه معنى الذكر والعبادة ويتقرب به

إلى الله عز وجل. أما وسائل الطعام والشراب، فليست من

هذا الباب، وهي تختلف باختلاف البلاد والعباد، الا ترى أن

نبي عليه الصلاة والسلام كان يأكل مما يليه، وفي هذا من الأدب ما لا يحصى، ولو كانت الملاعق في بلاده عليه الصلاة والسلام ونهى عن الأكل بها، وأثر الأكل باليد عليها لتم لهم ما يريدون، ولكن كل ذلك لم يكن، والمعقول أنها لو كانت في بلد النبي صلى الله عليه وسلم لاستعملها، لأنها أقرب إلى آداب الطعام التي كان يرمي إليها، وإلى النظافة التي كان يحث عليها

عود إلى وصف الطعام والمنام والركوب

قلت إن طعامنا في مدة ثمانية عشر يوماً إما أرز مع اللحم، أو الأرز وحده أو التمر، أو حليب النوق وحده والتمر وحده هو زادنا حيث لم نجد العرب، وحليب النوق هو الذي نصطبح به عندهم ثم نبقى عليه إلى المساء أحياناً، أما الخبز فلا أثر له هناك وأما الشراب فهو من ماء رملي وسخ جداً وهو الذي كانوا يطبخون به الطعام، فيقع الرمل فيه تحت أسناننا وأضراسنا، ولو كنت في الشام، لأصابني منه مرض عظيم، ولكن المولى لطيف خبير، وقد كنا نتيمم كل هذه المدة لعدم تيسر الماء ونصلي جماعة على التراب، وكنت أقصر الصلاة دائماً، وأجمع جمع تقديم وتأخير عند الضرورة، وأما المركوب فظهور الإبل التي تحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، وقد تعودنا ركوبها وسهل علينا بالتمرن

والعادة، وصرنا نجد الراحة في ذلك بعد الآلام التي قاسيناها، فالحمد لله رب العالمين.

وقد ظللنا مركب الإبل خمسة عشر يوماً، تسعة أيام من عند الشيخ سلطان الفقير إلى قرية الحائط، وستة أيام من قرية الحائط إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام كما سيأتي بيانه.

وأما النوم فعلى الأرض تحت الخيام أو تحت السماء، والعرب ليس عندهم للضيف إلا الطعام والقهوة، وينام الإنسان وإلى جانبه الجمال التي تأكل طوال الليل، وكذا الغنم والماعز والكلاب التي تنبح فيظن النائم أن العدو يحاول قتل الرجال، وسلب الأموال، والأهواء العاصفة التي تحمل صوت الليل فتصم الآذان، ويرحم الله القائلة.

لبيت تخفق الأرواح فيه　　　أحب إليّ من قصر منيف

ما أعجب حكمها، ولكني أعود فأقول لا عجب في حكمها لأنها لم تحكم حكماً عاماً. على أن البداوة خير من الحضر، ولكنها قالت «أحب إليّ» وهي معذورة في ذلك لأنها بدوية الأصل والمنشأ والعادة حببت إليها ذلك، كما أني أوثر الحضر، لأن التربية الحضرية مالت بي إليه. وكم من أهل الحضر من مدح حال البداوة وأثنى عليها وبالعكس، والحق أن في كلٍّ مزايا وخصوصاً لا تنكر، وليس هنا موضع تفصيلها.

ثم إن البرد هناك شديد جداً والعرب تقول: منع البَرْدُ البَرْدَ «أي منعت البرودة النوم»، وكان حالنا كما قال الشاعر

«ما أذوق منه لا عراراً». ولكن من رحمة الله بي أنه كان معي الحزم والمخدة والطراحة التي كنت أحد بها عظيم النعمة والراحة. ولولا الثياب التي بقيت عندي بعد السلب وأدوات النوم التي ... وهم وسلمها المولى منهم، لكنت في أسوأ حال، فالحمد لله الخبير المتعال.

وأما الحوادث والنوادر والمطائع أثناء الطريق، فهي الوقائع التي حدثت لأهل البداوة في غزو بعضهم لبعض وهم يقولون هنا ذبح فلان، وهناك قتل فلان وهنالك أخذ حلال فلان، ولم أسمع في طول تلك الأيام إلا الحوادث المفظعة وما أشبهها، وإلا الأناشيد التي لا أفهمها، ولم أتكلم مدة سفري معهم إلا بمقدار ما تلجئني إليه الضرورة وفي كل يوم كان يشتد بنا الخطر، ويزداد ضيق الصدر، ولا ندري متى يوافينا الأجل؟ ولا كيف يكون القتل، وكل يوم كنت أتلو فيه قوله تعالى ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾[10]

وما زلت على هذه الحال، وأنا صابر ثابت صامت، حتى بلغنا «قرية الحائط» يوم الثلاثاء في 4 رجب الفرد عام 1338هـ.

---

(10) سورة لقمان، الآية 34

نبذة من أخبار المتدينة

لم يتفق لنا أن نزل عند عرب في مدة ثمانية عشر يوماً «من 16 جمادى الثانية إلى 3 رجب» إلا وقصوا علينا نبذة من أخبار المتدينة، حتى وصلنا قرية «الجثامة» وهي في شمال المدينة المنورة على مسافة أربع مراحل منها. وهنالك مجمع أخبارهم، ومشهد آثارهم، وخلاصة ما اتصل بنا من أمرهم أن بعض وعاظ نجد ومرشديهم انبثوا في بعض القبائل والعشائر الحجازية، وطفقوا يدعونهم إلى الله ويعلمونهم أحكام الصلاة والزكاة وينهونهم عن الغزو وكل الحرام، فاستجاب لهم بعض القبائل كبني سالم، وكان الشيخ متعب «والشيخ من عنزة» مع طائفة من قومهم فحسنت حالهم، وصاروا يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وتركوا الغزو والسلب، وحملوا كتباً في التوحيد والفقه من نجد يتعلمون بها أحكام دينهم، ثم تبعهم بعض العشائر «كمُطَيْر، وعُتَيْبة وحرب وغيرهم، فباعوا إبلهم وغنمهم ومعزهم، وبنوا القرى من أجل أن يتحضروا ويتفرغوا لعبادة ربهم. وقالوا إن في اقتناء الوبر مشغلة عن طاعة الله عز وجل. ثم اشتدت حاجتهم إليها لعدم وجود ما يغنيهم عنها، وقد كانوا من قبل مولعين بالغزو، وأشربوا في قلوبهم حب الأكل منه، فراحوا يغزون تحت اسم «الإسلام» وسموا أنفسهم «متدينة» و«الإخوان» ومن يعطون عميدهم من الغنائم الخمس، وهو يحمي ظهرهم. ويشد

أزرهم، ويقسم الغنائم بينهم، ويبني لهم القرى، ويعمر لهم فيها المساجد. وقد سمعت أن فرقهم الآن قد بلغت الخمسين، وأنهم صاروا يقاربون أعداد خصومهم. وقد انتشروا ألوفاً مؤلفة بين نجد والحجاز، ويمتازون من خصومهم بقوة البأس، وشدة المراس، والقلوب القوية التي لا يجد الخوف إليها سبيلا. وهم ينقضون على خصومهم بسيوفهم اللامعة كالرعد القاصف، والبرق الخاطف، والسيل الجارف، وإذا عدوا من أهليهم قالوا لهم: سلوا الله لنا الشهادة، فيمضون.

وهم يضربون الرقاب ويمسحون بدماء القتلى زيادة في اغتنام الأجر والثواب!!

وهم طوائف مؤلفة من أكثر العشائر البدوية جهلا، ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان، وهم قد قرروا الجهاد حتى يفنوا عن آخرهم أو يفنوا خصومهم، ويرثوا أرضهم وديارهم وأموالهم، وقد اتسعت دائرة نزالهم، وامتدت ساحة قتالهم، حتى بلغت أطراف المدينة المنورة، حماها الله تعالى وصانها. فهم يهاجمون العرب في تلك الجهات، ويرجعون منها بالغنائم، وهم يجدّون في هذه السبيل، ولا يرجعون من حرب إلا بين قاتل وقتيل.

«نعود إلى ما كنا فيه» قلنا: إنا بلغنا قرية الحائط يوم الثلاثاء في 4 رجب الحرام عام 1338هـ، دخلناها وتناولنا طعام الغداء عند حاكمها الشريف عبد المطلب بن غالب، وطعام العشاء عند الشيخ حسن بن جابر أحد شيوخها، وأشار

علينا جميع من اجتمعت بهم بأن لا نتجاوزها إلى نجد، وأن لا نخطو قدماً واحدة من بعد، وقالوا إن الخطر على حياتي «بالمائة تسعون» وقال رفيقنا الشيخ شلاش: أنا لا آمن عليك من شر البادية، وما لست كهيئتك، أنك نجدي، وأنت من أهل الشمال، وهم يكفرونهم ويكفرون حكامهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم، ويتقربون بقتلهم إلى الله. وأنا أؤدي الأمانة تمامها، وآتيك بنحو بها، فقبلت النصيحة، وآثرت ذلك على أن نقتل شر قتلة، بتلك الأيدي الجائرة الأثيمة. وكتبت كتاباً يعتذر به عن عدم الوصول وفي ضمنه الأمنية والمذكرات، ولم نترك شيئاً مهماً إلا ذكرناه، وعسى أن يكون الجواب إن شاء الله وافياً بالمقصود شافياً لما في الصدور، ثم ودعنا الأخ شلاش ورفيقنا الشاب النشيط عبد الله صبح يوم الأربعاء بالدموع، سهل المولى عليهما، وأنجح مقاصدهما آمين.

قرية الحائط

قرية الحائط واقعة في شمال المدينة المنورة على أربع مراحل منها، وهي ذات نخيل كثير وفيها عيون عذبة، وأهلها قوم كرام، وهم فيما بينهم على اتفاق تام، وقد كانت هذه القرية في الأصل لعرب عنزة، ثم امتلكها منهم ابن الرشيد، بعد حرب ظفر فيها، وعامل أهل الحائط على نخيلها على أن يكون ثمره بينه وبينهم مناصفة، ثم استقلوا بأنفسهم فحاربهم منذ سنين وحاول استردادها منهم فلم يفلح. وفي أول

الثورة العربية عينوا شريفاً ليكون حاكماً عليهم فأرسل إليهم، وجلالة ملك الحجاز يأخذ منهم زكاة الثمار العشر فقط، ولا تزال تتجاذبها أنظار المطامع، من ابن الرشيد والمتدينين، وهم لا يرغبون غير حكم الشريف ومستعدون لقتال من يبغي عليهم.

فقضيت في هذه القرية ثمانية أيام، وكنت ضيف شريفها الشاب الأديب عبد المطلب ورفيقه المهذب النجيب الشريف حميد، وكنت أنام عند خطيبها الصالح بركة الشيخ مبروك النجدي، ونقرأ عنده بعد العشاء وبعد صلاة الفجر وأثناء النهار أيضاً دروساً في الحديث والفرائض والنحو والصرف، وقد ألقيت يوم الجمعة بعد أداء الفريضة في جامعها درساً عاماً فسرت فيه قوله تعالى ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[11] فظهر الخشوع وسالت الدموع واستلموا بعد الدروس يدي مصافحة ولثماً.

من يوم الثلاثاء 4 رجب إلى يوم الثلاثاء في 11 رجب عام 1338هـ

بذلت المجهود وأرخصت النفس والنفيس في سبيل الوصول إلى نجد والرجوع عن طريق المدينة المنورة فحالت الأقدار بيني وبين نجد، وتيسر لي السفر إلى المدينة تيسراً

[11] سورة البقرة، الآية 210

عجيباً، فصدق فينا المثل «أردت عمراً وأراد الله خارجة»، إذ أردنا نجداً وأراد الله الحجاز، وإليك البيان

اضطررت للبقاء في قرية الحنظل منتظراً رفيقي الأخ شملان. اشتد شوقي لشد الرحال إلى المسجد النبوي، والحظوة بشرف الزيارة المباركة وأداء الصلاة في تلك الروضة المطهرة بين البيت والمنبر التي هي من رياض الجنة، وكنت كلما تذكرت أن صلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام أفضل من ألف في غيره إلا المسجد الحرام، هزني الشوق وازدادت عوامل الرغبة.

وكنت أسأل الله أن ييسر لي سبيل الوصول والزيارة. ولم أكد ألبث هنالك أياماً حتى عرض لشيوخ «الحنظل» الكرام السفر إلى مدينة النبي عليه الصلاة والسلام، وهم الشيخ خليل مقبل والشيخ خلف بن جابر، والشيخ علي بن سليمان، وحضرة الخطيب الشيخ مبروك، ومعهم نحو خمسة عشر رجلاً، فعقدت النية على السفر معهم، وارتاحوا هم لذلك جداً، وكتبت للأمير علي ولي عهد الملك وحاكم المدينة المنورة، على لسان الشريف عبد المطلب كتاباً ذكرت له فيه المعرض للشريف عبد المطلب أيضاً بأن صديقنا «محمد بهجة» يحب التشرف بلقائكم مع الوفد.

ركبنا الإبل يوم الثلاثاء 11 رجب، وقضينا في مسيرنا ستة أيام، وفي صباح الأحد 16 رجب بلغنا مدينة الرسول صلى

عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام وكانت قد جالت في خاطري هذه الأبيات

قصيدتي النبوية

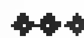
سيجمعك المحبوب يا خير مسلكي — بطيبة رب قد طوينا لها رحلا

صلاة به عدت كألف بغيره — وفي روضة المختار طبنا المقائلا

ألا يا رسول الله قد جئتنا بما — بإسعاد كل الناس قد كان كافلا

معلمنا أميا، وأرشدت حائراً — وأيقظت مغروراً وأدبت جاهلا

فصلى عليك الله يا سيد الورى — لخير نبي للإنسان قد جئت حاملا



وذلك كتاب الله ما زال بيننا — يؤيد حقاً ثم يزهق باطلا

أفاض على الغبراء شمساً فأشرقت — على كل معمور ومن كان فاصلا

دعا أمة التوحيد بعد تمزق — حتى تحد يد حي لحفظ منزلا

ولكن أبى أهلوه إلا تفرقا — وإلا عداء بينهم وتخاذلا



ألا ليت شعري هل دري الخلق — سرى في جهات الشرق أم دام غافلا

حروب تشيب الطفل قبل مشيبه — وقول رب الفكر حيران ذاهلا

لقد شبه أخلاق حقد وفتنة — ومن كان عن سبيل الشريعة مائلا

وكانوا سرى التعصب يمزعهم — سلبهم نيل من كان سائلا

وقد أرخصوا الأرواح دون مآلهم — وما رحموا إلا قتيلاً وقاتلا

بضرب رقاب لو يحب حلاقهم — وسفك دماء تترك الأرض سائلا

وتقطيع أجسام وإحراق أضلع ... تأكلها في النار ما كان آكلا

وتقسيم أموال وسبك عوانس ... يتامى أيامى لا ترى قطُّ عائلا

فذا بعض ما يجري وما قد سمعته ... على كلّ منهم وقد كنت سائلا



حنانيك يا رباه ماذا أصابنا ... وماذا دهى الإسلام سرعان عاجلا

وأنت رعاك الله يا نسل يعرب ... ألست ترى في ذاك عهداً زائلا

لقد عمّ هذا الشر كل ابن حرة ... فأحنى له ظهراً وأثقل كاهلا

سلام على يوم نرى العرب تقتفي ... به غدر من قد كان للعرب خاذلا

دخلت المدينة المنورة في ركب مؤلف من نحو ثلاثين رجلاً من عرب البادية ومن قرية الحائط، وأنا معهم على ظهر ذلول، في زيّ بدوي، أشعث أغبر، من وعثاء السفر، وعليّ كوفية وعباءة، حافي القدمين، ملثم الوجه بادي العينين، وما زلنا نجد السير حتى بلغنا منزل ولي العهد، سمو الأمير علي في منتصف العنبرية، على طريق السكة الحديدية، فأنخنا أمام بابه، ورأينا عشرات مزدحمين هنالك، من أهل المدينة والأعراب، فسألنا رجل من طرف سموه

أمعكم كتاب، فناوله أحد الشيوخ مكتوب الشريف عبد المطلب الذي كتبته بخطي على لسانه، فلم يلبث الرسول أن رجع إلينا يقول: أين الشامي؟ فتقدمت إليه، فقال: مولاك الأمير في انتظارك، فأنشدت في نفسي قول المثل: «متى

أصبح العمامة تعرفوني، فتعممت على الطربوش ولبست جبتي وجوربي ثم دخلت على سموّه وسلّمت عليه، فحياني بألطف تحية بعد أن نهض سموّه وقفاً على قدميه، ثم أكرمني بالجلوس إلى جانبه، وسألني عن صحتي وأحوالي ومقدمي، فأجبته بخلاصة أيام السلام وما لقيته من شديد الخطر، فهنأني بالسلامة وخيّرني بين السفر والإقامة، فبيّنت لسموّه سبب السفر ثم أحضر حاجبه وأوصاه بي، وأمر بإعداد محل لي أنزل فيه، فذهبت مع الحاجب داعياً شاكراً فضله، وجلست حصة لطيفة عند حضرة الحاجب «جميل بك الراوي البغدادي» وبعد تبادل عبارات السلام والمعرفة ستد عى سيادته «تلفونياً» رشيد أفندي الغَز الدمشقي «من قرية داريا» المقيم في المدينة المنورة بوظيفة مهندس للخط، وهو محبوب هناك جداً لاستقامته وكرمه، فلما انتهى إلينا سلّم علينا وجلس وبعد معرفة اسمي ولقبي قام واقفاً وجدّد السلام والاحترام، وقال: إن بني البيطار هم سادتنا ومرشدونا، وما منهم إلا عالم أو متعلم، فحياني جميل بك ثانية وقال تنزل ضيفاً في دار رشيد أفندي، وإذا عرض لك أمر أو غرض فرجو إخبارنا «بالتلفون» عنده، فشكرت غيرته وهمّته، وذهبت مع رشيد أفندي حتى انتهينا إلى داره في المحطة بأقصى المدينة من جهة الشمال، وبعد تناول طعام الغداء، مع ضيوفه حضرة مصطفى أفندي عبد الهادي النابلسي وولده الملازم صبير أفندي وغيرهما استأذنته

بالاغتسال في بيته ولم أذهب للحمام إذ ليس عندي شيء من النقود، وبعد الاغتسال وتغيير الثياب ذهبت قاصداً المسجد النبوي وهو يصحبني، فقطعنا العنبرية والمناخة وسوق المدينة، حتى انتهينا إلى باب الحرم، وهنالك أثر في الخشوع واغرورقت عيناي بالدموع، واشتد خفقان قلبي، حين دخولي على النبي صلى الله عليه وسلم، ولم أكد أضع رجليّ في عتبة الحرم حتى استلمني دليلان، وتنازعني عاملان، هذا يقول من الشام والآخر يجيبه نعم ولكنه قدم من معان، ثم سألاني تحقيق الخبر وهما يتجاذبان ردائي، فقلت لهما: أيها الإخوان إني متعب الى الغم الشريف مثلكما، وأحب أن ألتزم الزيارة الشرعية بعد أداء تحية المسجد في الروضة بين المنبر والبيت، ثم أدعو متوجهاً جهة القبلة بالدعوات الخيرية، وإني شاكر فضلكما وغير ناسٍ إكرامكما، ثم ذهبت وصليت ركعتين في موقف النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة، ثم بسطت يدي إلى السماء ودعوت بخيري الدنيا والآخرة لي ولأهلي وأصحابي وإخواني، وتلاميذ «مدرستنا التوفيق خصوصاً» وفقهم الله والمسلمين أجمعين لما يحبه ويرضاه ولم أنس بفضل الله أحداً أبداً فأسأل الله القبول، إنه أكرم مسؤول، ثم ذهبت وتشرفت بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة صاحبيه أبي بكر وعمر «رضي الله عنهما» وسكان البقيع وحمزة عم الرسول ﷺ وشهداء أحُد، رضي الله عنهم أجمعين

حال البلد الطيب العلمية

البلد الطيب كسائر البلاد أصابته الحرب بنقص من الأموال والأنفس والثمرات فأخرته في كل شيء تأخيراً محسوساً. أما دروس الحرم النبوي العامة فدرس في تفسير القاضي البيضاوي، وآخران في الفقه والتصوف، وأما دروسه الخاصة فمبادئ الفقه والنحو لأفراد من الطلاب. وقد شغل الناس أمر المعاش بغلاء الحاجيات، وقلة الموارد

المدارس الأميرية

في المدينة المنورة أربع مدارس أميرية، وهي العلوية، والعبدلية والفيصلية، والزيدية، على أسماء أنجال جلالة الملك الكريم، وقد زرتها كلها في اليوم الثاني والثالث، وعلمت أنها سميت في أوائل الثورة العربية. ولكل مدرسة مدير ومعاون وفي كل منها ثلاثون تلميذاً فأكثر ودروس كل منها القرآن الكريم والتوحيد والفقه الإسلامي والحساب، وليس للغة العربية فيها أثر وقد سألت عن سبب ذلك، فقالوا إن النظام الموضوع من قبل المعارف لا يساعد لأنها مدارس ابتدائية قلت يا سبحان الله أليس فن النحو من الدروس الابتدائية الحاجية، التي تبنى عليها العلوم الشرعية، وهل هو أدقّ من مسائل الفقه والتوحيد، الذين تقرئونهم للتلاميذ؟ فوعدوني بالعناية بتدريس النحو متى رخص لهم فيه، وذكر

لي أستاذ المدرسة الابتدائية بأنهما يقرئان اللغة العربية للطلاب ليلاً، جزاهما الله تعالى خيراً.

رحّب بي أساتذة المدارس الكرام ترحيباً عظيماً، وامتحنوا أمامي الطلاب في جميع الفنون، وألقى الطلاب النجباء أمامي خطب الترحيب وغيره من منثور ومنظوم، وشربنا الشاي في كل منها، وتبادلنا الحديث مع الأساتذة الأفاضل، وقد ألقيت في كل منها خطبة شكرتهم بها حضراتهم على ما لقيته من كرمهم وودهم، ثم بينت مزية اللغة العربية وغيرها، وسردت بعض النوادر المؤثرة في هذا الموضوع، وبيّنت أن مدينة الرسول «ص» ينبغي أن تكون في مقدمة البلاد ديناً وعلماً وأدباً وعرفاناً، وينبغي أن تستمد النهضة الحديثة منها، وتأخذ مدنية العرب الجديدة عنها، وشرحت حديث «إن الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»، وحديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»، وأن معنى ذلك إن شاء الله «أن الإيمان والإسلام بعد أن يضعفا ويرجعا إلى المدينة منبعهما ومصدرهما، سيستأنفان نشاطهما، ويجددان شبابهما بهمة أهل طيبة الغراء، ثم يبدآن الكرة، ويبعث في المرة الثانية من طيبة النور فيضيء سائر المعمور إن شاء الله تعالى».

فسروا بهذا البيان، وتبادلنا عواطف الشكر والامتنان، ثم ودعتهم وانصرفت، بعد أن كتب كثير منهم اسمي ولقبي وعملي في دمشق.

العلماء الغرباء في طيبة الغراء

غلما ن المدينة فقدت كثيراً من أبنائها أيام الحرب على اختلاف طبقاتهم. فمنهم من هاجر منها ولم يعد بعد إليها، ومنهم من قضى نحبه في المهجر أو في نفس المدينة. وقد فقدت قسماً من علمائها الأجلاء، وحفظ الله قسماً منها كقاضيها الفاضل الشيخ عمر الكردي الكوراني أحد أحفاد الشيخ إبراهيم الكوراني الشهير، ومفتيها الفاضل الشيخ أحمد كمخ وغيرهما. ولا تكاد تجد خمسة عشر في المئة من سكان المدينة الأصليين، والباقي من أعراب وأغراب من المهاجرين.

أما العلماء الغرباء الموجودون هناك فقد زرت منهم الشيخ الخضر الشنقيطي وجماعته والشيخ أحمد شمس الشنقيطي، وقد حصل لي بكل منهما أنس كبير والشيخ عبد القادر شلبي الطرابلسي مدير المعارف، وبعد مذاكرة دارت بيني وبينه في شأن الدروس العربية وأهميتها ومكانتها، ذكر لي قضيته من أمر المعارف ما ساءني أمره، ولا يسرني ذكره، وتبين لي أن حضرته غيور على دينه، حريص على مصلحة قومه، ولكن الأمر كما قيل: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. يسر المولى لهم من أسباب النهوض ما يحبون بمنه وكرمه، آمين.

فاننا أن نذكر اجتماعنا في المدينة المنورة بحضرة حاكمها لعسكري شكري باشا الأيوبي الدمشقي، وهو حفظه الله تعالى رفيق الطبع لطيف الخلق.

رجوعي من المدينة المنورة إلى دمشق

ثم عدنا من المدينة إلى دمشق الشام بعد أن مكثنا فيها ثلاثة أيام مشمولين بالخير والإنعام. ركبنا قطار المدينة ليلة الأربعاء 19 رجب الفرد عام 1338 فبلغنا دمشق مساء الخميس 28 رجب عام 1338 أي أن الطريق استغرق تسعة أيام فالحمد لله على التمام، ونسأله تعالى حسن الختام، وعلى ساكن طيبة وآله أزكى الصلاة والسلام



ثلاث رسائل متبادلة بيني وبين الإمامين عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ومحمد رشيد رضا منشئ المنار وتفسيره، وفيها تلخيص لما عانيته في الرحلة وللغرض منها، وللموضوعات العامة التي جرت المذاكرة فيها بوساطة الرسل أو اللقاء والمشافهة، أو الكتابة.

الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وآله وصحبه

إلى حضرة الأمير الجليل، ومحمد معالم لدين النبيل، ناصر السنة الغراء، وخاذل ذوي البدع والأهواء الإمام عبد العزيز آل سعود، أيده الله بروح منه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد بث الأشواق القلبية وتوجيه الدعوات الخيرية أبدي أن حضرة أستاذنا الكريم ناشر علم السنة في مصر والشام، بل في جميع أقطار الإسلام، السيد محمد رشيد رضا أرسلني إليكم وأرسل معي خطاباً لأسلمه إلى سموكم، مشتملاً على التعريف بي، والدعوة إلى عقد اتفاق عام بين جميع أمراء الجزيرة العربية وأئمتها الكرام، دفعاً للعدوان الأجنبي على بلاد الإسلام، ولم

بكر يخطر في بال السيد ولا في بالي، ما لاقيته في السفر من المتاعب، وما قاسيته من الأهوال والشدائد. وأول ما صادفنا عصابة شقية، من عشيرة بني عطية، سلبتنا نقودنا وثيابنا وزادنا، وسلبوني مقدار خمسين جنيهاً ذهبياً عدا ثيابي وزادي، وأصبحت نفسي على حساب رفيقي وأخي في الله تعالى شلاش جزاه الله تعالى خيراً. ولقيت مفرزة ثانية في موطن آخر، فوجهوا إلى صدورنا السلاح، ثم عرفوا أخي شلاش فأطلقوا سبيلنا. وأطلق آخرون علينا الرصاص، فلم يصبنا ولله الحمد، بأذى.

وإني أعزك الله أيها الإمام، شيخ علام من خدمة الكتاب والسنة في دمشق الشام، وقد عدت حالة الحصر، ولم يسبق لي تحمل مشاق السفر، ولذا نالني في خمس وعشرين ليلة كان فراشي فيها الرمال، بين الآكام والجبال، وركوبي في بعضها الجمال، ما نالني مما أورثني الآلام، وأمرضني عدة أيام وقد احتسبت ذلك عند الملك العلام، ورجوت أن يكون جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته. ولما قربت من قرية الحائط، قصوا علينا من فظائع حروب المسمين بالمتدينة مع خصومهم، ما تقشعر منه الأبدان، ويتفطر به قلب أهل الإيمان. وهم يطلبون الشهادة على أيدي من يكفرونهم، ويتقربون بقتل مثلي لأسباب لا تخفى على فطنة الإمام، وهم أخلاط من عشائر بدوية لا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان ولا يعرفون للنفس حرمة ولا قيمة، فقلت في نفسي ﴿ومن يقتل

مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾[12]، هداك الله وإياهم سواء السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولقد كنت نزلت ضيوفاً عند متعب أخي سلطان الفقير، فألفيناه هناك هو والإخوان، على أحسن حال يكون عليها أهل الإسلام والإيمان، وقال إن هذا أثر الوعظ والإرشاد، لا السيف والجهاد، وكذا رأينا العشائر المجاورة لهم، تقيم الصلاة وتسأل عن أحكام الزكاة، وذكروا أنهم في حاجة إلى مرشدين، يعلّمونهم من علماء نجد الأفاضل إذا هم انبثوا في جميع العشائر والقبائل، فإن العرب التي لم تستجب بعد، ليسوا بأقسى قلوباً ولا أغلظ أكباداً ممن دانت، فهم في مزيد الحاجة الآن إلى أن يشملهم نظر الإمام بإرسال واعظين حكماء، يعلّمونهم أحكام الشريعة السمحة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأحسب أنهم لا يمضي عليهم وقت قليل، حتى يكونوا أحسن حالاً من كل قبيل. وتلك أيسر الخطتين، وأقرب الطريقتين، والإمام أيده الله أبعد نظراً وأوسع خُبراً وخبراً.

كتبت هذا إليك أيدك الله وأنا في قرية «الحديثة» معتزماً السرح لأرسله مع خط السيد مع أخي في الله شلاش، كما أشاروا علينا بذلك، وقال شلاش إنه يتعهد بإيصال الأمانة إذا أنا سطرتها له، ففعلت، ولكني آسف كل الأسف على أن أقطع خمساً وعشرين مرحلة ثم يبقى علي بضع مراحل، فيحال

---

(12) سورة النساء، الآية 93

بيني وبين قطعها للتشرف بلقاء الإمام، والاستفادة من مجلسه العالية، وممن لديه من العلماء الأعلام، وسائر الإخوان الكرام، فوا أسفاه وواحر قلباه.

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

فعلى أولئك القاطعين المانعين ما يستحقون وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ذاكرني السيد مذكرات لأشافهكم بها، فكتبتها في ورقة خاصة مشاراً إليها بالأرقام وأرجو كل الرجاء أن تجيبوني عنها كتابة باختصار، حتى أسرد تلك الأجوبة للسيد، فيما مضى بتمام الخدمة، ووفاء بواجب الذمة، وعسى أن يسبغ الله بكم على المسلمين النعمة، ويدفع عنهم البلاء والنقمة.

وأكرر رجائي في أن تأمروا بكتابة جواب مختصر على المذكرات، ويصله لي مؤتمن من طرفكم تفصيلاً إذا شئتم واقتضى الأمر ذلك. والإمام أعزه الله وأبقاه من خدمة الإسلام ما يتمناه أرأف بي من أن يردني مخذولاً أو يعيدني إلى السيد محجولاً، ويأبى عطفه وفضله أن تجتمع علي مصيبتان مصيبة عدم التشرف بلقائه وعدم القيام بغرض السيد الشريف، مع تعبي وتعبه وعنائه أدامكم الله تعالى لنصرة المسلمين والإسلام.

يصلكم إن شاء الله مع الأخ ثلاث كتب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» لشيخ الإسلام

لشيخ ابن قيم الجوزية، شرح كتاب أبي إسماعيل الهروي، وكله علم وتحقيق في فن التصوف، وتزكية النفس بالفضائل وعدم تدنيسها بالرذائل، وقد طبع في مطبعة المنار، فأقدمه لجنابكم العالي هدية مني فمصس أيها الإمام الجليل بقبولها من هذا الضعيف، أدام المولى فضلكم.

وفي الختام، أقدم وافر الشوق وعاطر السلام إلى من يطرف مولاي من العلماء الأجلاء والإخوان الكرام، عليهم جميعاً أزكى التحية والسلام.

حرره في 5 رجب عام 1338هـ / 26 نوار 1920م

محبكم المخلص

محمد بهجة البيطار



الرسالة الثانية

كتاب مني إلى السيد الإمام محمد رشيد رضا بعد عودتي بالقطار

من المدينة المنورة إلى دمشق الشام، آخر شهر رجب الحرام، عام 1338 هجرية

يا شيخ الإسلام، جعلني الله تعالى فداك، ورزقني برك ورضاك، لي عظيم الشرف بلثم يدك، وتقديم وافر الشوق إلى سيادتك، وبعد فإني قد وصلت أمس دمشق الشام، بعد أن لبثت في المدينة المنورة ثلاثة أيام، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. وخلاصة الأمر أني قد قطعت مع رفيقي خمساً

وعشرين مرحلة ومن بعدها أول حدود مقدسة نجد قسم
ستطيع أن أخطو خطوة واحدة في أرضهم، خيمة من أن أقتل
شر قتلة، على يد جهلة عشائر البدو ذوي الأهواء والصلة،
فأرسلت مع رفيقي الرسالة، وبلغت كتابة جميع الامانة
وعززت ذلك بكتاب مني أوضحت فيه عذري وألححت على
الأمير برد الجواب، وهذه أول خدمة للإسلام، أقوم بها على
يد سيدي الإمام أقمت في الحائط منتظراً رفيقنا ثمانية
أيام ثم اضطر شيوخ القرية أن يردوا المدينة المنورة
فصحبتهم وأقمت هنالك ثلاثة أيام عند رجل دمشقي بأمر
من سمو الأمير علي، وخيرني سموه بين المقام، أو العود إلى
دمشق الشام، فاخترت الثاني ورجعت بحمد الله سالماً.

ليس بي الآن قوة ... وأنا عليل المزاج، منحط الجسم
مشتت الفكر. لأكتب لسيادتك أكثر مما كتبت، أو أوضح أكثر
مما أوضحت، وذلك بأنه ليس ركوبي على ظهر الجمل، بأشد
خطراً، ولا أكثر ضرراً من ركوبي في بطن القطار، الذي بقيت
فيه تسع ليال لم أذوق المنام إلا غراراً من شدة الازدحام
وحذر جهال البدو اللئام وحسبي أن أنقل من مذكرات رحلتي
نبذة يسيرة من أحوال جهال المدينة وقصيدة في وصفهم
وكتابي وكلها أرسلتها إلى الأمير مع كتاب سيادتك وفي أول
فرصة أتمكن بها من المثول بين يديك أبسط أمامك ما يجب
بسطه إن شاء الله، وعليك أيها السيد الكريم في الختام كريم
التحية والسلام.

محمد بهجة البيطار

الرسالة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الجلالة الملك الإمام عبد العزيز آل سعود المعظم،

أطال الله عمره، وأدام نصره، آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد عدت ولله الحمد وأنا مطمئن القلب، مرتاح الضمير، فرح مستبشر برضا الله تعالى ثم برضا الإمام عني وثقته الغالية بي ولله الحمد، وما عندي شيء يعدل شكر هذه النعمة إلا الدعاء لله عز وجل بأن يطيل عمر الإمام ويديمه ذخراً للمسلمين.

بلغت شكر صاحب الجلالة لأستاذنا السيد محمد رشيد رضا وعطفه وثناءه السامي عليه، وبشرته بما يسره، وبما يسر علماء نجد الأكارم، فشكر فضل الإمام، ودعا له بدوام النصر والتوفيق وقال: إن ثنائي على جلالته أكثر وشكري له أوفر وإني على دوام رضاه أحرص، ولولا ثقتي به وبدينه، وحرصه في علمه وعلى ملكه، ورجائي في انتصاره للمسلمين ودفاعه بقدر المستطاع، ومعرفتي بموقف هذا الانتصار والدفاع لولا ذلك ولولا اعتقادي أن هذا النصح والتذكير مما يجب علي القيام به وعدم التقصير فيه، ما كتبت إلى جلالته في ذلك حرفاً فإني جد حريص على دوام مودته وأن مسرته

مسرتي، ومساءته مساءتي، ولكن التعاون على الخير ودفع الأذى والعدوان مفروضان علينا ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[13] فشكرت لفضيلة السيد محبته ومودته وغيرته، ثم قلت: إن ما تعدونه في إمامنا المحبوب من غيرته على الدين والأمة، وحبه للإصلاح والدفاع هو الذي يدعوكم إلى تذكير جلالته بما ترونه واجباً. «قلت» ولكن مدار الأعمال على المال، وهو الآن غير ميسور، وأنا أعلم من جلالة الملك أن كل ما يراه المفكرون — على اختلاف مشاربهم وأذواقهم — ضروري، وكل ما سمعه أو علمه من مقترحاتهم، فهو إما أن يرى رأيهم فيه فيؤخره عنه عدم وجود المال، وإما لأنه لا يرى المصلحة فيه.

قال فضيلته: أما الأعمال فمدارها على الرجال والمال، والمال وحده لا ينشئ الأعمال، وأما الرجال العاملون العارفون فهم يوجدون طرقاً لتكثير الثروة وحفظها، ويقومون بالأعمال والمشاريع النافعة التي تظهر ثمرة المال وفوائده. قال: وأنا أعلم أن بلاد الحجاز تحتاج إليهما جميعاً، لتقوى وتعمر وليدوم لها ولإمامنا فيها الهناء والرخاء، ويكسب ثقة العالم الإسلامي كله، وأنا على يقين من أنه لا يقوم عمل في الدنيا بدونهما «الرجال والمال»، وأخاف من عواقب فقدانهما. ولا تزال بحمد الله - الفرصة سانحة بوجود هذا الإمام المحبوب،

---

[13] سورة المائدة الآية 2

بهجة الأرواح والقلوب، وقد حثت الآن «لخطاب إلى محمد بهجة البيطار» تبشيري عنه بكل ما يسرني، فيا لها من بشرى، وردت على ذلك أن جلالته أرسل الأوامر مؤكدة مشددة إلى جماعات الآمرين بالمعروف، في كل مكان، ليقوموا بأعمالهم بلا هوادة، وأوصى الدوائر الحكومية الرسمية من أعضائها إلى أدناها بتقوى الله في أنفسهم وفي أعمالهم، وقرن القول بالعمل، فظهر لذلك أثر محسوس ملموس، فهذه بشرى أخرى.

ثم قال الأستاذ أنا - تحدثاً بنعم الله - أعلم سنن الله تعالى التي هداني إليها القرآن في الأفراد والأمم، والممالك والشعوب، وأعلم أسباب الصعود والهبوط، والدوام والزوال، ومن يطالع المنار والتفسير يعلم ذلك، ثم بين كيف تنطبق هذه السنن الإلهية على الدول والأمم قديمها وحديثها، وهي لا تتخلف أبداً. وللممالك والشعوب آجال كما للأفراد، ولطول حياة الشعوب وسائل وأسباب، وإني لأكتب ما أكتب إلى جلالة الملك بباعث الخوف والرجاء، وأسأل الله تعالى له طول البقاء، ولحكومته دوام الارتقاء، ولو كنت أعتقد أن السكوت يسعني أو أن غيري يكفيني مؤونة هذا النصح لآثرت الصمت

والذي يزيدني رغبة في القول والعمل، وغيرة على هذه الحكومة، هو كونها حكومة دينية إسلامية، تعنى بتطبيق أعمالها على أساس الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة، فهي تتفق في غايتها مع ما أنشده وأنشره في المنار

والتفسير، منذ خمسة وثلاثين عاماً. ومن رأيي أقيم الأدلة على أن الحكومة الإسلامية التي تقام على أساس الشرع، تفضل جميع حكومات الأرض، «ويكفي كتب الخلافة العظمى شاهد عدل»

فأنا أرى أن هذه الحكومة الدينية التي تتمثل سلطتها في شخص الملك تحتاج من أجل تثبيت أركانها ورفع بنيانها، وتحقيق غايتها إلى أمور لابد منها، ولا غنى لها عنها. وهي ما أكتب إلى جلالة الملك بها، وأسأل الله تعالى له مزيد التوفيق.

قلت «القول من محمد بهجة البيطار» أنا أعرف قيمة هذه النصائح الثمينة التي تفضلتم بها، والفوائد العظمى التي تبنى عليها، ولكن لا يخفى على أستاذنا أن تحقيق هذه المطالب التي أشرتم إليها يحتاج إلى زمان كثير وأنّى للحكومة به الآن؟ ثم إن نشرها في المجلة أو المطالبة بها مع عدم إمكان تحقيقها، لا يأتي بالثمرة الطيبة التي تتوخونها. عدا ما في ذلك من تنبيه الأفكار، وتوجيه الأنظار، وعدّ ذوي الأغراض ذلك إعلان عداء. وذلك ما لا يرضاه فضيلة السيد، ولا يتفق مع سعيه المشكور بوجه من الوجوه، ولا يود أحد من المخلصين للأمة العربية، والمملكة الإسلامية، أن يكون أبداً.

ثم إن جلالة الملك الإمام الآن في نجد كما علمتم، والإصلاح في الحجاز لا يتم إلا بوجوده فيه، وبعد العود بالسلامة إن شاء الله تكون المكاتبة أقرب وأولى على أني أعتقد أن جلالة الملك لا يقبل أي إصلاح يأتي من غير طريق

الدين ويثقل عليه دعوته إلى محاكاة أوروبا أو أمريكا، وإنما يحب الأخذ عن كتاب الله، وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وعمل السلف الصالح، وهذا شيء تفرد به فضيلة أستاذنا صاحب المنار، فلا يعدّ أحد في طبقته فيه، سواء أكان من العلماء أو مشاهير الكتاب، فهو في تذكيره الملك الإمام في هذا الشأن، في غنى عن مشاركة أي إنسان. وإني أرى أن جلالة الملك يقبل منه ما لا يقبل من غيره، وأرى أن الاجتماع للمذاكرة أفضل من المكاتبة. وبناء على ذلك أرجح بل أقترح على فضيلة السيد أن يستأذن مولانا الإمام، في أن يفده في بلد الله الحرام، ليذكر له كل ما يجول في نفسه، ويتعاون معه على كل ما يحقق المطلوب للإسلام والمسلمين. والله هو الموفق والمعين.

قال فضيلته: أنا أعلم أن المال الآن غير موجود، والحالة تدعو إلى الاقتصاد التام في النفقات، وليس من رأيي نشر أفكاري ومطالبي الآن في المنار، إذ ربما يحمل ذلك كما قلت على محمل سيئ. أما أمر السفر إلى هناك، والاجتماع بجلالة الملك فلا أستكثره على هذه المهمة الإسلامية. وقد دعيت إليه أجبت مع الشكر، ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه.

ثم تذاكرنا في مطبوعات الملك الإمام، والتعليقات عليها، وسمعت له رأي المشايخ فيها. وأخيراً عدل عن التعليق على ما

يضيع عندي، وقال لي فضيلته: أنا محتاج إلى الوقت الذي أصرفه في هذه السبيل. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

هذا ما علق بالذهن من حديثي مع الأستاذ صاحب المنار، أعرضه على نظر الإمام المعظم أيده الله.

محمد بهجة البيطار



وقد جرى التفاهم التام بين جلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود والسيد الإمام محمد رشيد رضا على مسائل الإصلاح المنشود في البلدان العربية والإسلامية بمساعي هذا الضعيف «البيطار» كما هو واضح في هذا الكتاب الأخير الذي ختمنا به هذه الرحلة الأولى، فالحمد لله على التمام، ونسأله تعالى حسن الختام.



ترجمة الضعيف

محمد بهجة بن محمد بهاء الدين بن عبد الغني بن حسن بن إبراهيم ابن حسن بن محمد بن حسن البيطار الدمشقي

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان.

وبعد فالمشهور أن أصلنا القديم من بليدة وهي بلدة من أعمال الجزائر، هاجر منها جدّ جدي الأدنى سميه الشيخ

حمص، واستوطن دمشق الشام، منذ أكثر من مائتي عام ولم أقف على تاريخ الأسرة، ولا على سبب الهجرة، ولم يشر إلى مثل ذلك سيدي الجد الشيخ عبد الرزاق البيطار المؤرخ للقرن الثالث عشر في كتابه «حلية البشر»(14). وفي منتخبات التواريخ للسيد التقي الحصني شذرات من تاريخ الأسر الدمشقية، ومنها أسرتنا البيطارية، قال رحمه الله تعالى «ج2/ 865».

ومن الأسر الشهيرة في العلم والفضل في حي الميدان بدمشق «بنو البيطار» خرج من رجال هذا البيت جماعة من أجلة العلماء والشعراء تقدم ذكرهم في كتابنا في العصر الأخير وهم الشيخ محمد أمين الفتوى، وله ذرية كبيرة نجيبة. والمؤرخ الشهير الشيخ عبد الرزاق وله أحفاد نجباء، والشيخ عبد الغني، وله ذرية أدباء، والشيخ سليم أحد أركان رجال هذا البيت، مات سنة 1341هـ وقد أعقب ذرية نجيبة عرفنا منهم الشيخ جميل إمام جامع الدقاق وحسني بك المحاسب المركزي لمالية دمشق واشتهر منهم بالفضيلة والعلم الشاعر الشهير بهاء الدين، وهو والد صديقنا الشيخ محمد بهجة من علماء دمشق، ومن مدرسي الحرم المكي اليوم «سنة 1344 إلى سنة 1349هـ» اهـ بتصحيح قليل.

---

(14) سيأتي ذكره في هذه الترجمة بين المؤلفات المطبوعة

وذكر الشيخ محمد «وهو كبير الأخوة الأشقاء الاربعة وهم محمد وعبد الغني وعبد الرزاق وسليم» الأستاذ الشطي في وفيات سنة 1312 هـ وقال إن المترجم من كبار علماء دمشق وفقهائها، وهو أمين الفتوى بها أكثر من ثلاثين سنة، ثم نقل ترجمته عن التقي الحصني وزاد عليها زيادات جعلها بين هلالين، وترجم الصديق المؤرخ الشطي مفصلاً من أسرتنا في تاريخه روض البشر، وأعيان دمشق. أما الأستاذ الجد الشيخ عبد الرزاق فقد ترجم في «الحلية» لجده إبراهيم «ج1 ص6» ولابن شقيقه عبد الغني وهو والدي بهاء الدين «ج1/380» ولوالد المؤلف حسن بن إبراهيم «1/463» ولشقيقه عبد الغني بن حسن «ج2/873» ولشقيقه الأكبر محمد «ج3/1421» ولأصغر الأشقاء الأربعة سليم «1421/3» ولابن أخيه محمود بن محمد البيطار «1483/3».

هذه شذرات من تاريخ هذه الأسرة، تراجع في صفحاتها من أجزاء «الحلية»، وإني أكتب ترجمتي بالكلم الوجيز، وأضيفها إلى هذه التراجم استكمالاً لهذه السلسلة.

1 . الدراسة الابتدائية والثانوية:

كانت ولادتي بدمشق الشام ثاني يوم من شهر رمضان المبارك سنة 1311هـ و1894م.

وكانت الدراسة الابتدائية في المدرسة الريحانية، والدراسة الثانوية في المدرسة الكاملية من المدارس الأهلية ودرست اللغة الفرنسية في المدرسة العازارية الميدانية، ودراسة

خاصة على المسيو موريس «وهو الأستاذ عبد الله الريحاني الذي أسلم عن يدي رحمه الله».

2 ـ الدراسة العالية

وفي سنة 1326هـ تركت المدارس وعُنيت بتلقي العلوم العربية والدينية والعقلية على والدي الشيخ بهاء الدين، وعلى عالمي الشام جدي الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي، وعلى محدث الشام الشيخ بدر الدين الحسني، ثم على العلامة الجليل الشيخ محمد الخضر حسين التونسي شيخ الجامع الأزهر، وقد قلت أيام قراءتي عليه بدمشق «وهو خاتمة شيوخي»:

ما سائلي عن درس رب الفضل مولانا الإمام

أبي الحسين التونسي محمد الخضر الهمام

سل عنه مستصفى الأصول لليث معترك الزحام

أعني الغزالي المحكم رئيس أعلام الكلام

وكذاك في فن الخلاف بداية العالي المقام

أعني ابن رشد من غدا بطل الفلاسفة العظام

وكذا صحيح أبي حسين مسلم حبر الأنام

وكذلك المغني إلى شيخ النحاة ابن هشام

وكذا كتاب أبي يزيد بن المبرِّد في الختام

تلك الدروس كما الشموس تنير أفلاك الظلام

فتكون مثل حقائق لمعنى على طرف الثمام

فلحق عوضنا به عن شيخنا شيخ الشآم[15]

فعليه مادر المزلة رحمة الملك السلام

ولي إجازات علمية خطية من بعض هؤلاء الأجلاء، أحسن الله إليهم، وجمعنا بهم في دار كرامته.

3 . المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجمع القاهرة والعراق

انتخبت عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1340هـ= 1922م.

وبعد توحيد مجمعي دمشق والقاهرة في 26 حزيران سنة 1960م، اعتبر القرار الأعضاء في القاهرة ودمشق أعضاء في المجمع الجديد.

وانتخبت عضواً في المجمع العراقي في بغداد في 2 حزيران سنة 1954م

4 . التعليم بدمشق، والتدريس في الحجاز

علّمت في الثانوية الكاملية وغيرها، ثم دعتني وزارة المعارف السورية سنة 1921م لتعليم الدروس الدينية والعربية واللغة الفرنسية في عهد وزارة الأستاذ محمد كرد علي رحمه

---

[15] هو علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي

«الله» بمدرسة خالد بن الوليد، واستمررت في العمل، إلى أن دعيت إلى الاشتراك في المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بمكة المكرمة سنة 1344هـ 1926م فلبيت الدعوة وأديت فريضة الحج واشتركت في أعمال المؤتمر، وهنالك استبقاني جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وأدرت المعهد العلمي السعودي خمس سنين، وحج العيال معي سنتين، أما هذا الضعيف فقد منّ الله علي بالحج سبع مرات، وبالزيارة مرات، ولم أنقطع عن قراءة الدروس في الحرم المكي الشريف مدة إقامتي بمكة، وأقمت نحو شهر في المدينة المنورة، وكنت أقرأ الدروس في الحرم النبوي

5 . الوظائف والأعمال:

تقلدت أثناء ذلك أعمالاً أخرى، صدرت فيها مراسيم ملكية وها هي ذي بترتيب تواريخها

أ . عينت عضواً بمحكمة مكة الشرعية الكبرى، ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية سنة 1346هـ

ب . وعينت مفتشاً للعلوم الدينية في مدارس الحجاز، ومدرساً للتوحيد والتربية العلمية سنة 1347هـ 1928م

جـ . وعينت عضواً في مجلس المعارف العمومية، ومدرساً في المسجد الحرام سنة 1347هـ

د . وعينت عضواً في هيئة مراقبة الدروس والتدريس في الحرم الشريف سنة 1347هـ.

خدمت في القضاء ورئاسته تطوعاً، ولم أقصر فيه بشيء، ولم أتقاض منه أجراً، وآثرت مرتب التعليم عليه، وهو نصف مرتب القضاء، وهذا من فضل الله علي، وله سبحانه الحمد والشكر.

وقد عدت من الحجاز إلى دمشق عام 1350هـ، [1931م] فوجدت أعمالي موزعة، وفقدت من أعوام التقاعد أكثر من عشر سنين.

6 ـ التدريس بعد عودتي من الحجاز

أ ـ في سنة 1353هـ= 1934م دعتني جمعية المقاصد في بيروت لتدريس العلوم الدينية في كليتي البنين والبنات ولتاريخ الأدب العربي، والإنشاء والخطابة في كلية البنات، وفي نفس العام، انتدبتني وزارة معارف الشام، مدرساً لعلوم الدين في تجهيز البنات بدمشق، فتم لي الشرف بخدمة العاصمتين معاً، وكنت أسافر إلى بيروت أصيل الجمعة، وأعود منها مساء الثلاثاء من كل أسبوع.

ب ـ عينت مدرساً عاماً بدمشق، وصرت مدرساً أصيلاً، أدرس في تجهيزي البنين والبنات اللغة العربية والتوحيد والفقه في صفوف البكالوريا وما يليها، وعلمت في معهد جمعية العلماء سنة 1955م.

جـ ـ عينت مدرساً للتفسير والأخلاق في الكلية الشرعية بدمشق سنة 1361هـ.

د ـ عهدت إلي وزارة المعارف بتفسير القرآن الحكيم من الوجهة الأدبية في دار المعلمين العليا سنة 1942م

هـ ـ وفي عام 1943م نقلتني وزارة المعارف مدرساً لمادتي التفسير والحديث في داري المعلمين والمعلمات.

و ـ ثم عينت بدمشق مدرساً للتفسير والحديث في كلية الآداب من فروع الجامعة السورية من عام 1947 ـ إلى عام 1953م، وفي أول رجب من سنة 8 13هـ وكانون الثاني 1959م عينت مدرساً للتفسير في كلية الشريعة

7 ـ العودة إلى الحجاز

في عام 1363هـ [1943م] استدعاني جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله لإنشاء دار التوحيد بمدينة الطائف، فلبيت الدعوة وبذلت أقصى الجهد حتى تم إنشاؤها وبقيت فيها ثلاث سنوات إلى أن أصبحت ثانوية كبرى، وقد كتبت عنها الصحف العربية وغيرها بأنها معهد أنشئ لتخريج قضاة ومفتين ودعاة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان صحبني في هذه المرة ولداي يسار وعاصم وكانا عوناً لي في الإدارة والتعليم، وقد عاد الأول بعد انتهاء السنة الدراسية الثانية، وعاد الثاني بعد انتهاء السنة الثالثة.

8 ـ الإمامة والخطابة والتدريس.

توفي والدي الشيخ بهاء الدين سنة 1328هـ [1910م] رحمه الله فحللت محله في جامع محلة القاعة من حي الميدان نصف سنين إمامة وخطابة وتدريساً، وبعد وفاة خالي الشيخ

أحمد رحمه الله أمرني والده سيدي الجد الشيخ عبد الرزاق البيطار سنة 1335هـ [1916م] بتولي إمامة جامع كريم الدين الشهير بالدقاق؛ في حي الميدان، مع الخطابة والتدريس، ثم تولى الإمامة ابن عمي الشيخ جميل، وبقيت خطيب الجامع ومُدَرِّسَهُ، ولا أزال مواظباً عليها بحمد الله إلى هذا التاريخ 1387هـ [1967م].

وممن سمع خطب هذا الضعيف في جامع الدقاق، الأساتذة الأجلاء: سميي الأثري البغدادي، وحبيب العبيدي الموصلي، وعبد القادر المغربي الطرابلسي، ورئيس المجمع العلمي بدمشق، وأبو عبد الله الزنجاني الإيراني، وابن عمه عبد الكريم، ومحمد سعيد العرفي الديري، ومحمد تقي الدين الهلالي المغربي، والأمير شكيب أرسلان وغيرهم. وبعد أداء الخطبة وصلاة الجمعة أكون في صحبتهم إلى دار تقوم بواجبنا، ونستفيد من حكمتهم، ونبقى إلى ما بعد صلاة العصر.

وأما الإمام للصلوات الخمس فهو ابن عمي الشيخ محمد نعيم البيطار. ولنا مجلس بعد العشاء في إحدى حجر هذا الجامع، قرأنا فيه طائفة من الكتب الدينية والعقلية والعربية، بحضور إمام الجامع الشيخ نعيم، وإمام جامع الساحة وخطيبه الشيخ مسلم الغنيمي الميداني حفيد الشيخ عبد الغني الشهير، والشيخ إبراهيم حسنون إمام جامع السمارة السعودية، والقاضي الأستاذ سعدي أبو حبيب، وكنا نقرأ مع

هؤلاء الإخوان كتاب الموافقات للشاطبي، ومن مراجعنا كتاب الآمدي والمستصفى للغزالي في أصول الفقه، ونقرأ أيضاً كتاب ابن قيم الجوزية في الرد على المعطلة والجهمية، ويحضر معنا الأستاذ رسلان نجل صديقنا الأستاذ الشيخ حامد التقي، ومن قبل كنت أقرأ دلائل الإعجاز لإمام البلاغة الجرجاني، وكان يحضره سعادة صبري العسلي الرئيس السابق لمجلس الوزراء فتأثر ببلاغة هذا الكتاب خطابة وكتابة.

أما تدريسي في المدارس للعلوم على اختلافها، ولا سيما علم التفسير، فكنت أبذل فيه أقصى الجهد، وحسبي ما وصفني به بعض طلابنا الأدباء بقوله:

وما أستاذنا الطنطاوي إلا ... وحيد الشام في علم الكتاب

ليشرح حين يشرح كل صدر ... بمعنى من معانيه العذاب

ويبعث همة الأستاذ فينا ... كأن الشيخ في شرخ الشباب

9 - أهم ما ألهمنيه الله تعالى من أبواب الخير

أهديت إلي في عهد جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود «تغمده الله برحمته ورضوانه» سيارة بعد سيارة فوهبتهما إلى دار التوحيد السعودية التي كنت رئيسها في مدينة الطائف، وقدّم إلي المجمع العلمي الروسي الذي لبيت دعوته «سنة 1954م» مبلغاً يقرب من ألف ليرة سورية لأشتري به هدايا فرددته شاكراً فضلهم، وقدّم إلي ألف ليرة سورية

تبرعاً من بعض أمراء آل سعود الكرام إذ شرفوا وحلّوا ضيوفاً في الشام، فتبرعت بالمبلغ كله لدار الأيتام السعودية بدمشق، والحمد لله على فضله وكرمه.

أما تبرعاتي من مالي الخاص للمعاهد الدينية والخيرية ولإسعاف طلبتها، أو العجزة المقيمين فيها، فأسأل بها خبيراً، وأما المعاشات المرتبة لأولي الأرحام فيعرفها أهلها.

وما دعوت إلى التعاون في أمر خيري على المنبر أو في الدروس إلا وكنت البادئ بنفسي ولله الحمد على أني لا أجمع بيدي ولا أوزع بمعرفتي، وقد اعتزلت الولائم والمآدب الرسمية وغيرها، عملاً بقول من قال:

فلزمنا البيوت نستخرج العلم ونملأ به بطون الطروس

وأنا سعيد بالمحافظة على الوقت، والمواصلة على العمل، وقراءة الدروس في المساجد العامة، والدروس العربية والدينية لطلاب العلم، فلله الحمد على ما أنعم، والشكر له على ما ألهم، ونسأله تعالى القبول والمثوبة

10 . رحلاتنا إلى الديار العربية والإسلامية وإلى العالمين الشرقي والغربي:

(1) الرحلة إلى الحجاز وإلى نجد

رحلت «في ج2 سنة 1338هـ» إلى الحجاز ونجد لدعوة إلى عقد اتفاق عام بين أمراء الجزيرة وأئمتها الكرام دفعاً للعدوان الأجنبي على بلاد العروبة والإسلام، وتكليفي بهذه

المهمة كان من خلافة الملك فيصل الأول الهاشمي والسيد الإمام محمد رشيد رضا منشئ المنار والتفسير بمصر أيام الحكومة العربية السورية الأولى. وهي الرحلة التي وصفت في هذا الكتاب.

«2» الرحلة إلى الأقطار العربية

كانت رحلتي الثانية من دمشق إلى العراق ونجد والحجاز في ذي القعدة سنة 1363هـ وتشرين الأول سنة 1944م وكان ترتيبها هكذا: دمشق، بغداد، البصرة، الكويت، الرياض، المدينة المنورة، مكة المكرمة، بدعوة من جلالة الملك عبد العزيز آل سعود لإنشاء معهد ديني في الطائف من أرض الحجاز، وكانت وقفتي في عرفات يوم الجمعة في 1363/12/9هـ ولله الحمد، والمعهد هو «دار التوحيد السعودية» وهو كالمعهد السعودي الذي أسس بمكة

«3» الرحلة إلى القاهرة والإسكندرية

سافرت في 1955/2/9م من دمشق إلى القاهرة فالإسكندرية لانعقاد مؤتمر مواصلة العمل الإسلامي المسيحي لإحلال السلام محل الحروب والخصام بين الشعوب والأقوام، كما انعقد قبل سنة في لبنان. وقد ألقيت الخطاب الرئيسي في نصرة فلسطين، ونشرته جريدة الأيام الدمشقية، كما نشرت نص قرار المؤتمر بشأن فلسطين «في 30 ج2 سنة 1374هـ و23 شباط 1955م».

«4» الرحلة إلى البلاد الروسية

لبّى المجمع العلمي العربي بدمشق دعوة مجمع العلوم الروسي، واختار أربعة من أعضائه وهم: الأمير جعفر الحسني، والدكتور حسني سبح، والدكتور في الآداب سامي الدهان، وكاتب هذه السطور محمد بهجة البيطار، «وكان ذلك في ربيع الأول 1374هـ وتشرين الثاني 1954م»

وقد زرنا موسكو، وطاشقند، وسمرقند، وليننغراد وستالين غراد، وغيرها من المدن، وكنت أصلي فريضة الجمعة مع إخواني المسلمين في مساجدهم، وقد زرنا المجامع العلمية، والمكتبات الكبرى، والمصانع، والمزارع، والمعارض، في مدة خمسة عشر يوماً، وكان تكلمي مع الترجمان الروسي باللغة الفرنسية لأنه لا يعرف العربية ولا أعرف لغته الروسية.

«5» السفر إلى خطوط النار في فلسطين

حضرنا مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد بدمشق مدة خمسة أيام في رجب سنة 1375 هـ ونيسان سنة 1956» وكان يمثل أعضاؤه، وهم 67 عضواً، ست عشرة دولة.

ثم دعيت هذه الوفود وذهبت معها إلى خطوط النار بفلسطين، ومررنا بعمان، والقدس، والخليل، ونابلس، وجنين، وطولكرم، والخطوط الأمامية من القرى والمخيمات، ولما زرنا مدرسة البر بأبناء الشهداء في عقبة جبر خطبت مستمرأ الحمية والأريحية، فبلغ مجموع التبرع من هذه الوفود الكريمة خمسة آلاف ليرة سورية، ولله الحمد والشكر.

«6» الرحلة إلى الولايات المتحدة

كانت الدعوة موجهة إلي من أصدقاء الشرق الأوسط لزيارة بلادهم ولتقريب وجهات النظر بين الأمتين الإسلامية والمسيحية «وكان ذلك في شباط 1956م ورجب سنة 1375م».

والذي كلمني في ذلك ودعاني هو الدكتور هوبكنز نائب رئيس الجمعية المذكورة ذاكراً ما يتوقع من فوائد للبلدين، فلبيت الدعوة، وكان في صحبتي الأخ الكريم الأستاذ نوري القبلاوي من شباب فلسطين. وقد زرنا في رحلتنا هذه عشر مدن في شمالي الولايات المتحدة وهي: نيويورك - تورنتو من كندا - ديترويت - شيكاغو - سان لويس - هوستن - تشابل هيل - اتلانتا «من ولاية جورجيا» - ريشموند - وكانت خاتمة المطاف واشنطن. قصدناها راكبين من نيويورك بالسيارة، وكنت خطيب الجمعة في جامع واشنطن، بتكليف من الأستاذ بيصار الأزهري، وهو رئيس المركز الإسلامي وخطيب المسجد، وقد سُمع خطابي بدمشق بواسطة المكبر، وذكر لي بعض الإخوان في حي الميدان خلاصته، وكان موضوعه دعوة المسلمين في أميركا أن يمثلوا الإسلام وأهله أفضل تمثيل بأخلاقهم الفاضلة، ومعاملاتهم العادلة، وكنت في هذه المدن ألقي عدة محاضرات مرتجلة، في كل يوم وليلة. وقد نشرت جريدة «النصر» في 13/2/1956م و21/8/1375هـ، نص الخطاب الرئيسي الذي ألقيته في هوستن في 7 نيسان 1956 تحت عنوان «مصدر الكتب السماوية هو الله تعالى، والرسل لا تختلف في أسس دعوتها»

«7» الرحلة إلى باكستان والهند

لبّى الوفد السوري دعوة رئيس جمعية شباب في مدينة لاهور، واشتركنا في مؤتمر الندوة العالمية للإسلاميات «ج1/1377= ك1/1957» وشرفني الوفد السوري برئاسته. وقد زرنا العاصمة كراتشي، وكنت خطيب الجمعة في مسجد لاهور، باقتراح الوفود الإسلامية. ثم بعد انقضاء المؤتمر زرت دلهي «دهلي» من بلاد الهند «على حسابي» وزرنا المعالم والأعلام. وهذه جمعيات ثلاث تشتغل باللغة العربية وعلومها:

«1» نظام جمعية لسان القرآن باكستان

«2» الأخذ بالأساليب الصحيحة لتعليم العربية.

«3» النهوض بالمدارس العربية حتى تتبوأ مكانها اللائق بها في محيطنا التربوي وإنشاء مدارس ليلية لتعليم العربية.

«8» الرحلة إلى الرياض

تفضل جلالة الملك سعود بن عبد العزيز بدعوتي إلى الرياض للمذاكرة بشأن إنشاء جامعة إسلامية في المدينة المنورة، فلبيت الدعوة «في رجب سنة 1380هـ = ك2 سنة 1961م»، وكتبت المنهاج وسلّمت نسخة منه إلى جلالته، وثانية إلى سماحة قاضي القضاة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، فنال الاستحسان ولله الحمد.

«9» الرحلة إلى مصر

وتوجهت من الرياض إلى القاهرة «في 27 رجب سنة 1380هـ و14/1/1961م» لحضور مؤتمر اللغة العربية المؤلف

من أعضاء المجمعين القاهري والدمشقي وكان انعقاده مدة خمسة عشر يوماً.

(10) الرحلة إلى المدينة المنورة

عدنا في العام القابل في أواخر رجب سنة 1381هـ فزرنا الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة واطلعنا على سيرها، وألقينا محاضرات فيها، وصلينا في المسجد النبوي، وزرنا إمام الأنبياء والأتقياء، صلاة الله وسلامه عليه، وزرت صاحبيه وسكان البقيع، وشهداء أحد، واعتمرت بمكة المكرمة، وزرنا صديقنا الأكبر في جدة الأستاذ الشيخ محمد نصيف، وعدنا إلى دمشق الشام.

نحمد الله تعالى على نعمته، ونسأله المزيد من فضله وكرمه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ما ألفته أو أكملته أو شرحته:

لي من التآليف المطبوعة

1 - «نقد عين الميزان» ألفته انتصاراً لأستاذنا القاسمي وأئمة الرواية في الأخذ عن كل ثقة ثبت صدوق، ألفته أيام الطلب والتحصيل على الأستاذ، وطبع في حياته سنة 1332هـ [1914م].

2 - «نظرة في النفحة الزكية» هي دعوة إلى مذهب السلف الصالح ونبذ المعتقدات الزائفة والآراء الفاسدة، طبع دمشق.

3 - «الثقافتان الصفراء والبيضاء» ألفتها محاضرة في المجمع العلمي، وطبعت رسالة مستقلة، وهي جامعة للأصول السديدة للثقافتين القديمة والحديثة.

4 ـ إكمالي تفسير السيد الامام محمد رشيد رضا لسورة يوسف عليه السلام، مع مقدمة للسورة، طبع مصر.

5 ـ تخريج أحاديث «قواعد التحديث» من فنون مصطلح الحديث» لشيخنا القاسمي رحمه الله وشرحه. طبع دمشق.

6 ـ نشر «مسائل الإمام أحمد» لتلميذه الإمام أبي داود السجستاني» وهو أقدم كتب المكتبة الظاهرية، وقد طبع في مطبعة المنار مع تعليقات لي، وتحقيقات للسيد صاحب المنار، رحمه الله تعالى.

7 ـ تخريج أحاديث «كتاب البخلاء للجاحظ» وهو الذي حققه وصححه بعض رجال المجمع العلمي الكرام بدمشق.

8 ـ كتاب المعاملات في الإسلام، وتحقيق ما ورد في الربا للسيد صاحب المنار وقد أكملته بعد وفاته رحمه الله. ووضعت له مقدمة وخاتمة طبع المنار.

9 ـ تحقيق كتاب «الموفي في النحو الكوفي»، ووضع تعليقات عليه بشرح غوامضه، وقد طبعه المجمع العلمي بدمشق سنة 1370هـ سنة 1950م.

10 ـ شرح كتاب «أسرار العربية» لأبي البركات الأنباري المتوفى سنة 577هـ وقد طبعه المجمع العلمي سنة 1377هـ ـ 1957م.

11 ـ كتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية من منشورات المكتب الإسلامي بدمشق. طبع دمشق سنة 1380هـ ـ 1961م.

12 - كتاب حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر والثلث الأول من القرن الرابع عشر، تأليف الشيخ عبد الرزاق البيطار حققه ونسّقه وعلّق عليه حفيده محمد بهجة البيطار من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وهو من «مطبوعات المجمع» وقد تم طبعه في ثلاثة أجزاء الأول سنة 1380 هـ = 1961م والثاني سنة 1382هـ = 1963م والثالث سنة 1383هـ = 1963م.

13 - الإسلام والصحابة الكرام، بين السنة والشيعة، طبعها المكتب الإسلامي في بيروت، على حساب السلفي الكبير الأستاذ الشيخ محمد نصيف الشهير.

14 - الكوثري وتعيقاته ومعه رسالتان للأستاذين المعلّمي اليماني ومحمد عبد الرزاق حمزة طبع مصر.

15 - مقال في حياة حجة الإسلام الغزالي، وآخر في الاشتقاق والتعريب، ألقيتهما في مجمعي اللغة العربية بمصر ودمشق، فنشرا في مجلتيهما، وفصل مجمع القاهرة فطبعهما مستقلين أيضاً.

ملاحظة

وفي مجلتي مجمعنا العلمي العربي والتمدن الإسلامي، وغيرهما من الصحف والمجلات في ديار الشام والسعودية ومصر والعراق عشرات المقالات المتنوعة، تحتاج إلى جمع وطبع رسائل مستقلة، وبالله التوفيق.

الرحلة السعودية
الحجازية النجدية
1347هـ. 1929م

تأليف محمد سعود العوّري

قاضي مدينة بيت المقدس سابقاً

ومدرس علمي التفسير والحديث في المسجد الأقصى

الفهرس

مقدّمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

لحمد لله رب عالمين وصلى الله على سيد مرسلين

وعى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فقد ك ن لكثير من الكتب القديمة لتي ألّفت في لرحلة مزية قلّما تجدها في المؤلفات لحديثة، وهي أن لمؤلّف كان يترك القلم يرسم ما في نفس صاحبه بعيداً عن التصنّع فإذا قرأ لناس كتاب رحلة شعروا بأنهم معه يرون ما رآه ويقفون على وقْع ذلك في نفسه.

وهذه لمزية وجدناها واضحة في هذا لكتاب الذي عني بتسطيره وتحبيره العلامة لجليل صاحب لسماحة الأستاذ لشيخ محمد سعود أفندي العوري قاضي مدينة بيت المقدس سابقاً، فإنه آلى على نفسه - منذ أمسك القلم ليكتب رحلته إلى الديار الحجازية المباركة - أن يجعل لقارئ كأنه يشاهد معه ويسمع كل ما تحدّث به إلى لناس وتحدّثوا به إليه

ولم يكتف سماحته بذلك بل أراد أن يكفي الحاجّ مئونة البحث في كتب المناسك عن أركان الحج ونوافله وآدابه فأتى من ذلك بما يحتاج إلى معرفته كبار العلماء فضلاً عن الجمهور.

ومزية أخرى لهذه الرحلة لسعودية لسعيدة أنها مرآة لنفس مؤلفها تنمّ على ما فطر عليه من الاعتراف للناس

بأقدارهم، والثناء على أهل الفضل بما هم أهل له. والرحلة مستفيضة بهذا السخاء العجيب الذي يدلّ على كرم الفضل وعظيم الوفاء ولطف المعاشرة والثناء على الناس بمحاسنهم.

ومن أعظم ما يلمسه القارئ في هذا الكتاب ابتهاج المؤلف بمآثر الإصلاح التي شاهدها في الديار المباركة الحجازية على عهد حضرة صاحب الجلالة الإمام المصلح الداعي إلى الله الملك عبد العزيز آل سعود مدّ الله في أيامه وأتمّ الخير على يديه حتى نرى للعربية وللإسلام الدولة اللائقة بهما سامية نامية في ظله الظليل.

وانتهز الأستاذ المؤلف فرصة سانحة للتنويه بالإخاء الإسلامي وتأييد الوحدة التي جاء الإسلام ليوثق عروتها، فأدّى الأستاذ بذلك إلى خدمة الإسلام ما ينتظر من أمثاله العلماء.

لذلك نرجو الله عز وجلّ أن يجعل هذا الكتاب مقبولاً عنده وعند خلقه إنه قريب سميع مجيب.

محب الدين الخطيب[16]

---

[16] محب الدين بن أبي الفتح الخطيب، ولد بدمشق في تموز 1886 وبها تلقى علومه الأولية والثانوية. في عام 1920 ولدى دخول الفرنسيين دمشق غادر محب الدين دمشق واستقر في القاهرة، حيث عمل في التحرير في جريدة الأهرام نحواً من خمس سنوات. كما أسس المكتبة السلفية ومطبعتها حيث أشرف بنفسه على نشر عدد كبير من كتب التراث.

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة السعودية الحجازية النجدية

المقدمة

الرحلة السعودية الحجازية النجدية، نسبة لصاحب الجلالة الملك العادل الرشيد ملجأ الإسلام وخادم المسجد الحرام، ومسجد النبيّ الأمين محمد عليه الصلاة والسلام، والمسجد الأقصى في مستقبل الأيام إن شاء الله تعالى، حامي حمى الشريعة الغرّاء، المجدّد لهذه الأمة أمرَ دينها في القرن الرابع عشر، إمام الموحدين مولانا السيد عبد العزيز آل سعود الكرام مليك الحجاز ونجد وملحقاتها، حصن العرب المنيع، غرة هذا العصر بين الأنام، أعز الله به الدين وجعله مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهية للعالمين، بمنه وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسرى بعبده، العاني الفقير إلى عفو مولاه القدير الغني به عمن سواه، الملتجئ إلى حرم حمده، الراجي غفران الذنوب، وستر العيوب، من أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، القصير الباع، في مضمار البلاغة والبراعة، كثير الخطيئات، قليل الحسنات، المتعاصي البعيد عن الطاعات، المقصر في أداء الفرائض والواجبات «محمد مسعود بن عبد الله بن عمر بن الناصر لدين الله الشهير بالغوري»، أسرى به من المسجد الأقصى المبارك حوله بنص الكتاب العزيز المعجز للبلغاء والفصحاء والنبلاء الذين لم يقدروا أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، مع كونهم أرباب البلاغة وألدّ الخصام لسيد الأنام، الذي أرسله الله رحمة لعباده بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، إلى المسجد الحرام الذي جعله الله تعالى بأن يكون أول بيت وضع للناس ﴿سواءً العاكفُ فيه والبادِ ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عذابٍ أليم﴾[17] وقد أمر خليله عليه السلام بتجديده ﴿وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبّلْ منّا إنّك أنتَ السميعُ العليمُ ۞ ربَّنا واجعلْنا مُسلمَيْنِ لك ومِن ذُرّيّتِنا أمّةً مسلمةً لك وأرِنا مناسكَنا

(17) سورة الحج، الآية 25

وَتُبْ عَلَيْنَا﴾[18] الخ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[19] هذا هو البيت الذي من دخله كان آمناً وقد كان كثير ما يخطر ببالي أن أعول على الترحال لتلك الديار المباركة لأكون من جملة من أجاب دعوة الخليل الجليل عليه السلام، وأنتظم في سلك الذين يحيون البيت الحرام. ولما غلبتني الأشواق شرعت في إعداد عدّة السفر فبلغ ذلك أسماع أصدقاء الفضيلة المتحلين بالأخلاق الفائقة النبيلة القاطنين «بيافا» المشهور سكانها بالمكارم وحبّ العلماء الأكارم، فدعاني نخبة منهم كل واحد لرحابه

الفصل الأول

في إجابة الدعوة والذهاب إلى يافا لوداع الأحباب بارك الله فيهم

فلبيت دعوتهم ولكنني اخترت أن أكون ضيفاً في الساحة الفيحاء، والمنزل الرحيب المنسوب لكثير آل الحاسدي المحترمين، سلالة سيف الله على أعدائه مولانا الشيخ الحسين، صاحب الفضيلة، والمزايا الجميلة الجليلة الحاج

(18) سورة البقرة الآيتان 127 128

(19) سورة إبراهيم الآية 37

راغب أفندي عضو المحكمة المركزية سابقاً أدام الله علاه، وأيده بروح منه، وجعل أنجاله الغرّ الميامين من أسعد خلق الله. هذا وقد تشرفت برحاب صاحب الفضيلة الشيخ عيسى أفندي أبو الجيبين، حيث تناولت هناك الغداء، وكذلك تشرّفت برحاب صاحب «الصراط المستقيم»[20] الشهير بالدفاع عن المسلمين الذي لا يخشى في الله لومة لائم، وهو من عمداء السادة الحنابلة بفلسطين حفظه الله تعالى، هذا ثم إنه دعاني إلى وادي حنين حضرة صاحب السعادة ومعدن السيادة، حاتم الجود ومصباح هدى الوجود مولانا السيد توفيق بك العصبي فرع الشجرة الطاهرة الزكية، في الديار القدسية، فكان قدومنا على سعادته عيداً سعيداً لنا ولأنجاله الذين هم نجوم المكارم حول ذلك البدر المنير حفظهم الله من الحدثان.

الفصل الثاني

في سبب تأليف هذه الرحلة

وبما أني حينما كنت في وادي حنين مع صاحبي الفضيلة الشيخ عيسى أفندي أبي الجيبين والشيخ عبد الله أفندي القلقيلي المشار إليهما ضيوفاً عند صاحب السعادة المشار إليه، سألني بعض الأحباب الفضلاء عن نوع الهدية التي

[20] صحيفة الصراط المستقيم صدرت في يافا عام 1924م أسبوعية ثم يومية مؤسسها الشيخ عبد الله القلقيلي

مقصودي تقديمها لحارس الأماكن المقدسة من تعديات الأشرار مولانا صاحب الجلالة، قرّة عيون الأخيار «السيد عبد العزيز آل سعود الكرام» أعزّ الله به الإسلام ملك الحجاز، ملاذ الأمة العربية، وملجأ الأمة الإسلامية، حقيقة لا مجاز، فشعرت أن مراده بهذا السؤال أن يلفت نظري لتأليف كتاب لحسن ظنه أن هذا العاجز ممّن تهون عليه الصعب لا سيما وهو يعلم علم اليقين أن هذا الفقير ليس من أرباب الأموال، وكأن الشاعر عناني بهذا المقال

لا خيل عندك تهديها ولا مال — فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فأجبته لمطلوبه امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[21] وعملاً بحديث الرسول الأعظم ﷺ القائل ﴿تهادوا تحابوا﴾ وعزمت على تأليف ذلك الكتاب وسمّيته «الرحلة السعودية الحجازية النجدية» وأهديته لمولانا صاحب الجلالة المشار إليه، والمعوّل في إعلاء كلمة الله عليه ولا بدع في ذلك فإن إهداء الكتب النفيسة لأمثاله خير من إهداء الأموال التي تفنى، وقد عزمت على تقديمها بعد طبعها لخزانة حكومته العربية سائلاً منه تعالى أن تحظى بالقبول والإقبال، وأن ينفع بها ذو الجلال وأن يبقى العرش السعودي إلى الأبد فتكون مداراً للفخر للأحفاد بما تحلى به الأجداد إن شاء الله تعالى

---

(21) سورة الضحى، الآية 10

هذا كما وأني دُعيت إلى قرية بيت دحى فشاهدت من أهلها ما يشرح الصدور ويزيد الحبور، وقد نزلنا في بيت أبي الحسن السيد كامل افندي الدحى فلا تسل عمّا لقيت من الحفاوة حيث قلدت عقود المن حفظهم تعالى من الآفات، ثم رجعت إلى القدس الشريف لتوديع الاقارب والاحباب وقانا الله وإياهم من عذاب الدنيا والآخرة، وجعلنا الله جميعاً من أهل الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، إنه خير مسؤول وحري بالقبول.

الفصل الثالث

في سبب العزم على الذهاب إلى الحجاز

وقد كنت في يوم من الأيام أتلو كتاب الله المنزل، على حبيبه المرسل، حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين﴾[22] فارتعدت فرائصي من هذا التهديد، حيث عبر الباري تعالى وتقدس بكفر من استطاع الحج ولم يحج، وإن قال المفسرون المقصود ومن كفر بفرضيته أو مشروعيته لا من تركه معتقداً لذلك فيكون فاسقاً لا كافراً كما ورد كفر دون كفر، فبادرت حيث قدرت على المراد ولزحته بالامتثال خوفاً من غضب ذي الجلال المنعم المنتقم ﴿نبئ عبادي أني أنا

(22) سورة آل عمران، الآية 97

﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[23] نعوذ بالله من التعرض لغضب ذلك الحليم الذي لا يعادله حليم، فإن الحليم إذا غضب حلّت النقمة بالمغضوب عليه « اتقوا غضب الحليم».

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا يخفى أن الله تعالى لما اشتد غضبه على قوم نوح عليه السلام أرسل عليهم الطوفان حتى غرق مع من غرق ولده كنعان ولم تنفعه نسبته لأبيه العبد الشكور ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[24] فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإذا نفخ في الصور وبعثر ما في القبور ذهبت الأنساب هباءً منثورا.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[25] فلا ينفعه إلا العمل الصالح.

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

اللهم اجعلنا من صالحي الأعمال الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأظلنا تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، واجعلنا من الآمنين يوم الفزع الأكبر تحت لواء صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمد المصطفى عليه السلام.

---

[23] سورة الحجر الآيتان 49 ـ 50

[24] سورة الحجرات الآية 13.

[25] سورة عبس الآية 37

نت سميع الدعاء، فعزمت على الذهاب إلى الحجاز قاصداً
د ء المريضة، راجياً منه تعالى أن يحفظني وحاشيتي بعين
عنايته إنه قريب مجيب

الفصل الرابع

في وداع الأقارب والأحباب

فوصلت القدس الشريف، ثم بعد الاستراحة قليلا شرعت في وداع الأقارب والأحباب والأفاضل الأصحاب، وقد استغرق ذلك ستة أيام، وطلبت منهم العفو عن الإساءات، وغفر الزلات والهفوات وأن يصحبوني بصالح الدعوات عسى الله أن يعفو عني وعنهم ويغفر لي ولهم كما عفوا عني وغفروا ﴿فمنْ عفَا وأصْلحَ فأجْرُهُ على اللّه﴾[26] ولا ريب في أن الله يغفر له الخطيئات فالجزاء من جنس العمل "الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر" كما جاء في الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والتسليم من الله الكريم. ثم ودعت الحرم القدسي الذي تعشقه نفسي، وأزمعت السفر إلى مصر في يوم الاثنين الموافق الثالث عشر من شهر ذي القعدة الحرام سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة صاحب المجد والشرف ﷺ (22 نيسان 1929م)

---

(26) سورة الشورى الآية 40

الفصل الخامس

في وصف القطار

فامتطيت جواد القطار في أول النهار وظني حسن في الله أن يغفر لي تلك الأوزار وأن يحشرني في زمرة الأبرار، وأن يبعدني عن الأشرار ما دمت في هذه الدار، وأن يحفظ ذريتي وأهلي وعشيرتي من الشيطان الرجيم خصوصاً ولدي الفاضل مصطفى فاضل التوحيد وأنجاله سعود وأسعد وكريمته يسرى المبشرة لتلاوة كتاب الله المجيد وأن يبعدني وإياهم من كيد الحاسدين الذين «يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» ولا ريب في أن الحسد حسك من تعلق به هلك. ولله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله.

هم يحسدوني وشر الناس كلهم ... من عاش في الناس يوماً غير محسود

إذ لا يسود سيد بدون ودود يمدح وحسود يقدح.

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ❖ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ❖ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ❖ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ❖ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[27] ثم إن ذلك الجواد شرع بطوي البراري والقفار، وكأني به قد طار على أجنحة أشواقي إلى المحصب والعقيق والبيت العتيق والمقام.

---

(27) سورة الفلق، من 1 - 5.

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وما زال ذلك الجواد الذي هو أسرع في السير من الصافنات الجياد يهتزّ طرباً ويميس عجباً ولعله سرى إليه شيء من كهرباء فؤادي ووصل إلى قلبه بعض محبتي ووددي فاعتراه الغرام والهيام فهام طامعاً منه تعالى نوال المرام عساه أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فهو الخليل الجليل عليه الصلاة والسلام.

الفصل السادس

في بيان الثناء الجميل على أهالي وادي النيل

وقد وصلنا إلى السويس ليلة الثلاثاء الموافقة الرابعة عشرة من الشهر المذكور وهي إحدى ثغور مصر المحروسة فنزلنا بها منتظرين حركة سفينة النجاة متوكلين على الله تعالى سائلين منه القبول والإقبال لأنه ملك الملوك والإقبال بيده الخير وهو على كل شيء قدير راجين منه جزيل العطاء متذكرين قول ابن عطاء: من قدر لك أن يصطفيك لابدّ وأن يصطفيك على ضعفك ويحبك كُله نعم، ولا تأكله مثل فأعرضت عن السوى، والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى.

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[28] وقد شاهدت محاسن اتقان ايدي صنعته ايدي الأبطال ولا ريب في أن همم الرجال تزيل الجبال.

لمصر على كل النواحي انتهى الفخر	فكم آية كبرى بها لب نكر
وحسبك فضل قد سامي بأزهر	بها صار بحراً حوى مثله بر
كفى مصر عزاً بأنما مثله يهد	وكم مصر فيه قد حوته لها فخر

بل هي مجمع أبحر الكرم والجود، فكم لها من منن لا تحصى في هذا الوجود، وحسبك ما جادت به أيدي المصريين على المسجد الأقصى من عهد الأمويين إلى يومنا هذا، وذلك ن حسنات صاحب الجلالة فؤاد الإسلام والمسلمين، التي ظهرت في شهر رمضان وسارت بذكرها الركبان فاقتدت به لحكومة والأعيان لا تنسى ما تعاقب الملوان، فهو المصلح الكبير ويكفيك منه تولية العلامة المحرير مولانا النجيب النبيل أخيك في الله شيخ الإسلام مصطفى المراغي شيخاً للجامع الأزهر لجامع الذي له على الأمة الإسلامية الفضل الأكبر منذ عهد الفاطميين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين إن شاء الله تعالى. ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه قال للصحب الكرام ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم قرابة ورحماً وصهراً، وقد كان أمها وفتشد الأقباط ومنهم السيدة هاجر أم

---

[28] سورة القصص الآية 88

إسماعيل عليهما السلام، وهي جدّة العرب سادات الأمم الذين خصصت لغتهم وفضلهم الرقاب، وهابت لهم الصعاب، فكانوا نجوم الهداية للأنام وبدور الاستقامة والسعادة وينابيع الإحسان والإنعام، متمسكين بأحكام الدين الحنيف الذي لا يحوم حوله الحيف، ومن نحا نحوه لا يضام، وذلك أن من تمسّك به نجا من المهالك الدنيوية والأخروية وفاز بالمراد، وها هي البلاد، تنتج للبلاد ومجده قد زاد، ألا ترى إلى أن مولانا صاحب الجلالة السيد عبد العزيز آل السعود كل يوم ملكه في ازدياد.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

والسبب في ذلك اعتماده على الله الذي لا ربّ سواه، وعلى العمل بالشريعة الغرّاء وقبوله نصيحة العلماء والفضلاء ومشورتهم في الكلية والجزئية. وهو الناصر للسنة والقامع للبدعة فهو أحق الملوك بإحراز قصب السبق في مضمار الفخار واقتداء ملوك الإسلام به في إعلاء كلمة الله الواحد القهار، ليحشروا في زمرة الأخيار، ويتحصنوا بحصنه المنيع فلا تتسلط عليهم الأشرار

الفصل السابع

في لزوم إعداد القوة لمحافظة الوطن من الأغيار

ولاسيما إذا عملوا بقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[29] ما دمتم في هذه الديار. ومن رحمته تعالى أن قال «ترهبون» ولم يقل تقتلون أو تذبحون، فإذا أعددتم القوة فإن الأعداء يخافكم فلا يجسرون على الزحف على بلادكم، فيبقون في ديارهم سالمين وتبقون أنتم في أوطانكم رافلين في حلل المسرات. أما إذا أهملتم القوة فإنكم لا تكونون معززين مكرمين بل يجسر عليكم العدو فتصبحون أذلاء مهانين، وتقتلون وتقاتلون وتعرضون دياركم للخراب وأنفسكم للهوان والاستعباد فعليكم بالعمل بهذه الآية الجليلة كي تنالوا كل خصيصة. أما «من» في قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فهي للبيان وأما «من» في قوله ﴿ومن رباط الخيل﴾ فهي للتبعيض فالقوة الداخلة تحت الاستطاعة شاملة للأساطيل البحرية، والمناطيد الجوية، وأسراب الطيارات الهوائية، والمدافع القوية والخنادق الأرضية، والأسلاك الكهربائية، وسائر المعدات الحربية، واتفاق الكلمة والسعي الحثيث لتأليف الجامعة الإسلامية وتعميم الصنائع العصرية مع العلوم التي لا تنافيها الشريعة المحمدية والتحلي بالأخلاق

---

[29] سورة الأنفال، الآية 60

المرضية عند رب البرية، وإياكم والسفور الذي يجر إلى الفسق والفجور والاختلاط الذي يدعو إليه كل خلاط مارق من الدين كالحداثيين الملحدين، وغيرهم من الأعداء المنافقين دعاة الاستعمار الذين يعيثون في الأرض فساداً وفي قلوبهم مرض النفاق والشقاق فلا يقر لهم قرار ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[30] ولو كان هؤلاء الملحدون يؤمنون بقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[31] وقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى قيام الساعة وهم على ذلك» لما أقدموا على التمسك بالضلال والسعي في طلب المحال ولكن ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[32] بلى والله وقد اغتروا باستدراج الله لهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[33]

وبعد إقامتي في القطر المشار إليه يومين وجدنا أهبة السفر قد رتب أن امتطينا فرس السفينة الطليانية، ذاكرين

---

(30) سورة الصف الآية 8

(31) سورة الحجر الآية 9

(32) سورة الزمر الآيتان 36 37

(33) سورة القلم الآيتان 44- 45 وسورة سورة الأعراف 182- 183

نعمة الله عليه وعلى نبينا نوح أول أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم خمسة على التحقيق، خلافاً لمن يقول إنهم أكثر من ذلك، وقد جمعهم قول الشاعر:

محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

وفضلهم على هذا الترتيب.

الفصل الثامن

في سبب صنع السفينة

وسبب صنع السفينة أن نوحاً عليه السلام قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له فأصروا على كفرهم واستكبروا استكباراً، وبقي مثابراً على نصحه لهم حتى أوحي إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [34] فيأس حينئذ من إيمانهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [35] فأمره الله تعالى بصنعها حيث يقول ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [36] فكان قومه بعد ذلك يمرون به ساخرين يقولون

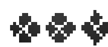
---

[34] سورة هود، الآية 36

[35] سورة نوح الآيتان 26- 27

[36] سورة هود، الآية 37

إن نوحاً بعد أن كان نبياً صار نجاراً ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ[37]﴾ وبعد تمام بنائها قال الله تعالى له ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ[38]﴾ فكان عاقبة طغيانهم وتكذيبهم لرسولهم الذي قام حق القيام بالنصيحة لهم، ولكن من يضلل الله فما له من هاد، إن غضب الله عليهم فأشهر عليهم سيف انتقامه وعمهم بالطوفان فلم يبق منهم ديار ولا نافخ نار، فاعتبروا يا أولي الأبصار. وقد اختلف العلماء في الطوفان هل كان عاماً لجميع الأرض أو خاصاً لبعضها، والتحقيق أنه عام خلافاً لمن يقول بخصوصه. ولو أنابوا إلى الله ورجعوا إليه لوجدوا الله تواباً رحيماً. ألا ترى إلى قول نوح عليه السلام ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا[39]﴾.



---

(37) سورة هود، الآيتان 38 - 39

(38) سورة المؤمنون، الآية 27

(39) سورة نوح، الآيات 8 - 11

هذا وقد وجدت تلك السمينة طبق المرغوب ولم يكن فيها غير سبعين حاجاً من عدد أهل الدرجة الأولى والثانية، وكان من نعمة الله علينا أن أفردت لنا غرفة عظيمة لم يكن فيها معنا غير صاحبتنا.

الفصل التاسع

في بيان عجز المحتاج إلى الصاحبة والولد واستحالة ألوهيته

ولا ريب في أن الإنسان محتاج إلى الصاحبة نظراً لعجزه كما أنه محتاج إلى الولد ليقوم بخدمته حال ضعفه الذي يزداد يوماً فيوماً. قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[40] وقد تراءى لي عند هذا الشعور بالعجز الحاجة إلى الصاحبة والولد أما مولانا تبارك وتعالى فهو الغني عن كل ما سواه وكل ما سواه محتاج إليه وهذا برهان قاطع على أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ❖ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[41]. وتوضيح ذلك أن العاجز المحتاج إلى غيره لا يمكن أن يكون غنياً عمّن سواه وأن جميع المخلوقات محتاجة إليه إذ العقول السليمة تحكم باستحالة ذلك وبما

(40) سورة الروم، الآية 54

(41) سورة الإخلاص، الآيتان 3 - 4

أن الإله لابد وأن يكون غنياً عن العالم بأسره كيف لا وهو الذي يطعم ولا يطعم والعالم بأسره فقير ومحتاج إليه، إذ لو احتاج إلى غيره لكان عاجزاً فلا يقدر على إغاثة نفسه فضلاً عن إغاثة غيره، بل لا يصلح أن يكون ملكاً من ملوك الدنيا فكيف يصلح أن يكون إلهاً بيده الخلق والأمر يتصرف في الأملاك والملوك كيف يشاء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[42]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[43] فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً

الفصل العاشر

في جعل السفينة مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية

ولما شعر الحجاج بوجودي في السفينة كلفوا رفيقي السيد عثمان الأنصاري أن يبلغني رغبتهم في تعليمهم مناسك الحج وإلقاء الدروس الشرعية في حلقتهم لسؤالهم امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وخوفاً من أن يصدق على هذا العاجز الحديث الشريف «كاتم العلم ملعون». ثم إنهم هيؤوا مكاناً لإلقاء الدروس فيه، وعيّنوا وقتاً لذلك فحضرت إلى

---

[42] سورة الأنبياء، الآية 22

[43] سورة مريم، الآيات 93–95

المكان في الوقت المعين وشرعت في إلقاء الدرس مستعيناً بالله تعالى عساه أن يطلق لساني بما بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وبينما كنت أقرر لهم ذلك حضر جم غفير من شيعة العراق وفي مقدمتهم أحد فضلائهم صاحب كتاب الحق المبين في الاستظهار على القسيسين، وقد كان أخبرني بوجوده السيد الأنصاري المومأ إليه، كما أنه أخبر المؤلف المشار إليه بوجودي في السمينة، فأهدى إليّ الجزء الثاني من كتابه المذكور، ثم حضر عندي فأجلسته عن يميني واحترمته احتراماً يليق بأمثاله، وكان المكان غاصاً بأهل السنة والشيعة وبما أنني واقف تمام الوقوف على أحوال علمائهم حيثما كنت قاصياً في صدور قربهم معرمون بحب الجدل، فقد هيئت نفسي للدفاع لأنني أيقنت بأني سأدخل معه في حرب عوان، لاسيما وأن في صحبته بعض زعماء العراق، فطبعاً يريد أن يظهر أمامهم مظهر المنتصر على هذا العاجز حتى يعلو مقامه عندهم، وحيث أنني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً التجأت إليه تعالى سائلاً منه أن يؤيدني في هذه الحرب بروح منه، وكأنه سبحانه وتعالى استجاب دعائي ففتح عليّ فتوحاً جعل خصمي بعد أن كان عزيزاً في نفسه ذليلاً بين يدي الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه، حتى صرح بالاعتراف أمام الحجاج بفضل هذا الحقير حيث قال إنني ناظرت كثيراً من علماء السنة فلم أر أحسن خلقاً وألين عريكة من هذا الأستاذ، وقد أردت إنهاء المناظرة بتفسير

قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[44] فلما انتهيت من تفسيرها سكت الفاضل الموما إليه وقد أدرك أنني عرضت به، ومع هذا كله في ذلك الوقت غير محرمين فانتهى البحث بيننا بسلام

الفصل الحادي عشر

في بيان أحوال العراق

وبيان مطايا الأجانب أصحاب النفاق والشقاق

ثم ذهبنا معاً وجلسنا نتحدث عن أحوال العراق ونشكو ما أصاب الأمة من الشقاق الحاصل الآن بين زعمائها فقد انقسمت على نفسها شيعاً وأحزاباً حتى أصبح كل واحد يدعي الزعامة منهم مطية للأجنبي فجعلوا بذلك الكتاب العزيز والسنة النبوية وإجماع الأمة والقياس الصحيح التي هي أصول هذا الدين وقد حضرني إذ ذاك قول ابن هروة

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ثم أني سألته عن أعمال صاحب الجلالة السيد فيصل نجل صاحب الجلالة الحسين بن علي بن عون الرفيق ملك العراق فأثنى خيراً فسررت كثيراً من ذلك لاسيما وأنه من السلالة الطاهرة، وقد استبشرت بنجاح هذه الأمة التي أصبحت تمام

---

[44] سورة البقرة الآية 197

لهوان بعد شامخ عزها وراسخ مجدها قائلاً: إذا جاء الشيء على أصله لا يستغرب فهو من آل بيت النبوة المصلحين حفظه الله تعالى ووفقه للتعاون على جمع كلمة أمراء المسلمين، لاسيما الإمامين الهمامين صاحبي الجلالة السيد عبد العزيز ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، والسيد يحيى حميد الدين ملك اليمن لينهضوا جميعاً لإعلاء كلمة الله وعز الإسلام والعرب، فقد ورد إذا عز العرب عز الإسلام وإذا ذلّ العرب ذل الإسلام. ثم سألته كيف حالكم معاشر الشيعة مع أهل السنة. فأجاب بأنه لا يوجد بيننا وبينهم اتفاق صحيح كما أنه لا يوجد بينهم أنفسهم، وكذلك نحن مع الأسف. فقلت له وما أسباب ذلك مع أن الشدة قد تجمع الكلمة وتنسي الأحقاد. فأجاب أن الدولة المنتدبة هي السبب الوحيد في هذا الاختلاف. فقلت له: ولم ذلك؟ فقال إنه يقوم رجل من أهل السنة مثلاً متظاهراً بخدمة الدين والوطن فيرفعون مقامه أمام الأجانب ويلقبونه بزعيم أهل السنة فيتقرب بذلك عند المندوب السامي للعراق الذي لا يقطع دون أمره شيء فيأمر له بكرسي فيبيع له ذمته ووجدانه فيوحي إليه بلزوم تفريق صفوف الأمة فيفعل ذلك خوفاً من ذهاب معبوده الكرسي، وكذلك يقوم رجل من الشيعة متظاهراً بما تظاهر به أخوه السني فيلقب بزعيم الشيعة فيحظى بتقرب المقعد المومأ إليه، فيدفع له كرسياً فيه خراب الوجدان والإثم والعدوان ويكون الشيعي مع أخيه السني كفرسي رهان في حلبة الفساد والتفريق بين العباد، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقلت له إذاً لا لوم على الإنكليز حيث يتمسكون بسياسة فرق تسد وبعبارة أخرى فرق تحكم فمصلحتهم تقضي عليهم باتباع تلك الطريقة التي أوصلتهم إلى السيطرة على كثير من الأمم، وبقي اللوم علينا نحن العرب. فقال إن المنافقين كانوا موجودين في زمن صاحب الرسالة ﷺ فكيف بهذا الزمان. قلت ليس هذا بعذر مقبول، كيف لا والله يقول ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [45] فيجب على الفضلاء أمثالهم أن يقوموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس والسعي الحثيث في جمع كلمة العلماء والأمراء والسوقة عسى الله أن ينقذ هذه الأمة من حضيض الذل إلى سماء العز والمنعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [46]. فقال هذا حق نسأله تعالى أن يوفقنا وإياكم لجمع كلمة الإسلام وإعلاء كلمة الله بين الأنام ثم إنه بعد رجوعي إلى العراق سالماً إن شاء الله تعالى سأحثهم للسير على طريقتكم المثلى، لعل الله يغير هذه الحال بأحسن منها. فقلت ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وإلى هنا انتهى الحديث بيني وبين الفاضل المشار إليه ثم ذهب كل منا إلى حال سبيله.

---

(45) سورة آل عمران، الآية 103

(46) سورة محمد، الآية 7

الفصل الثاني عشر

في بيان وجوب الإحرام عند الميقات

ثم بعد مدّة أقبلنا على رابغ الميقات فانشرح صدري وأنشدت قول القائل:

قالوا غداً نأتي ديار الحمى	وينزل الركب بمغناهم
فقلت لي ذنب فما حيلتي	بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم	لا سيما عمن ترجاهم

ثم شرعت في البكاء حتى كدت أغيب عن الوجود، ثم بعد أن صحوت ذهبت للاغتسال وأديت بذلك الغسل سنة الإحرام وبعده أحرمت بالعمرة فقط قائلاً: اللهم إني أريد العمرة فيسرها لي وتقبّلها مني لبيك اللهم لبيك لبيك بعمرة، لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك

وقد اخترت أن أكون متمتعاً إذ هو أفضل من الإفراد بالحج ومن الجمع بينهما وهو القران كما ذهب إلى هذا القول الإمام مالك بن أنس المشار إليه بحديث «يوشك أن تضرب أكباد الإبل فلا يوجد أعلم من عالم المدينة» والإمام الجليل الزاهد مولانا أحمد بن حنبل الشيباني قدّس الله سرّه العزيز، الذي أثنى عليه شيخه عالم قريش الإمام المعظم محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه حيث قال:

قالوا يزورك أحمد وتزوره	قلت الفضائل لا تفارق منزله

وإن زاد في فضيلته أو [illegible] فضيلة الفضل في [illegible]

فإن قال قائل إنك على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه والقران عنده أفضل من التمتع فما الداعي لتركك العمل بمذهبه مع كونه أشق على النفس، وفي الحديث: أفضل العبادات أحمزها أي أشقها، وقد كان عليه الصلاة والسلام المرسل رحمة للعالمين قارناً في حجة الوداع لا متمتعاً، فما الجواب عن هذا الإشكال؟ أقول وبالله التوفيق إن مذهب الإمامين المشار إليهما أقوى دليلاً من مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة قدس سره تعالى في هذه الحادثة، وتوضيح ذلك أن رسول الله ﷺ أمر المحرمين بالحج أن يفسخوه إلى العمرة ففعلوا ذلك، فصار الصحابة في حجة الوداع متمتعين لا مفردين ولا قارنين. وقد قال ﷺ لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة، فيؤخذ من هذا الحديث أن الإحرام بالعمرة فقط خير من الإفراد بالحج وخير من القران فما فعلته هو الأفضل لاسيما والله تعالى يقول ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (47) فالله تبارك وتعالى يحب اليسر لاسيما على حجاج بيته الحرام والتسهيل عليهم وقد قال رسول الله ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة» وقد رفع الله عن الأمة المحمدية الإصر أعني الشدة التي كانت على الأمم السابقة، وفي

---

(47) سورة البقرة، الآية 185

الحديث الشريف «إني لست كأحدكم أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» أي يجعل الله عليه الصلاة والسلام قوة الطاعم الشارب وذلك حينما واصل في شهر رمضان فواصل الصحابة فنهاهم عن ذلك. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه فقاربوا وسددوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» هذا مع العلم بأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وأين هذا العاجز الضعيف من سيد أولي العزم القوي المتين حتى يكون قارناً ويبقى خمسة وثلاثين يوماً وهو محرم مع حر الحجاز والجمع المحتشد في مكة المكرمة الذي يزيدها حرارة زادها الله تعظيماً وتكريماً وأيد مليكها العامل بالكتاب والسنة بروح منه أنه سميع الدعاء.

الفصل الثالث عشر

في بيان حال القبل على الديار المباركة الحجازية وأحوال رجال الحكومة العربية

ولما أقبلنا على جدة ذات الثغر البسام داخلنا السرور وكدنا نطير فرحاً بمشاهدة الديار المباركة، فحمدنا الله تعالى على التوفيق والهداية لأداء الفريضة ثم دخلناها فشاهدت فيها رجال الحكومة السعودية ورأيت أنوار العدالة ساطعة على ربوعها ومخيّمة على أنحائها وشاهدت الإمارة الإسلامية في نفوس سكانها فانشرحت منها الصدور وعمّت الحبور،

وأيضا أن الله تعالى لابد وأن يبدل هذا الذل بالعز فقد تناهى الذل أهل الإسلام، كما تناهت عصرية أعلى نه الشام.

نكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الليالي كما شهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (48)

وقال الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ... ترقب زوالاً إذا قيل تم

فنهاية العز ابتداء الذل ونهاية الذل ابتداء العز ولا ريب في أن عز الإسلام بدأ من الجزيرة إلى أن تناهى ثم عمّنا الذل، وفي هذا العصر تناهى فرجعنا إلى العز والحمد لله فابتدأ من الجزيرة كالسابق، لذلك نرى أن الله تعالى لابد وأن يعز الإسلام على يدي صاحب الجلالة الإمام المرتضى السيد عبد العزيز ناشر لواء العدالة في مملكته الواسعة وراية الأمن والأمان والاطمئنان على كافة الأهالي، خصوصاً وفود بيت الله الحرام.

---

(48) سورة آل عمران، الآية 140

الفصل الرابع عشر

في التوجه إلى مكة المكرمة والاعتماد في بلوغ المراد على الله وحده

ولما عزمت على التوجه إلى مكة المكرمة كلفني بعض الإخوان أن أبرق إلى مولانا الملك العادل بقدومي لأداء الفريضة، فأجبته بأنه لا ينبغي لمن يكون قاصداً ملك الأملاك وضيف بيت الله الحرام أن يشرك معه غيره، كيف لا وهو الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فما التفت لهذا التكليف وصمم عزمي على عدم رفع البرقية سائلاً منه تعالى أن يوفق جلالته لجمع كلمة هذه الأمة ولمّ شعثها كي يدفع عنها شر الأغيار الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ولا يحفظون عهداً لأحد وليس العهد عندهم إن لم تكن قوة إلا قصاصة ورق كما هو معلوم لمن تتبع أحوالهم واقتفى أثر معاهداتهم ووعودهم لاسيما مع الشرقيين خصوصاً العرب والمسلمين. هذا وقد أقمنا مدة ساعتين في الثغر المشار إليه حيث زادت بنا الأشواق فامتطينا سيارة أسرع من البرق إذا لمع قاصدين حرم حمى الله تعالى، مسرورين فرحين مستبشرين بمغفرة من الله ورضوان وجنات فيها نعيم مقيم، والدموع تتساقط من العيون تساقط الدر المنثور راجين منه تعالى أن يكون حجنا مبروراً، وسعينا مشكوراً منشدين هذا القول:

يا عين قد صار البكا لك عادة ... تبكين في فرح وفي أحزان

وقد غابت الشمس قبل وصولنا إليه فصلينا المغرب واسترحنا من وعثاء السفر ثم بادرنا المسير فلما أقبلنا على مكة المكرمة قال السيد الأنصاري قال لي انظر أمامك فنظرت وإذا بأنوار الرحمة الإلهية تلمع في الأفق المحاذي للكعبة المشرفة ولا تنقطع أصلاً، فزاد سرورنا وأيقنا أن الله تجاوز عن ذنوبنا التي تفكر البحر، وتفضل علينا بالقبول، ولا بدع فإنه مجمع أبحر الكرم والجود الذي جوده لا نهاية له ورحمته الواسعة تسع هذا العالم بقوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [49] وهم أمة محمد ﷺ الذين لا يفرقون بين أحد من رسله بل يؤمنون بجميعهم عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الخامس عشر

في دخول مكة المكرمة

فوصلنا ليلاً وإذا بالشيخ عبد الرحمن أبو مطوف أهالي فلسطين منتظر قدومنا وقد استقبلنا بوجهه البسام وذهب بنا إلى رحابه الفسيح وأنزلنا عنده على الرحب والسعة ضيوفاً مكرمين، وكيف لا نكون كذلك ونحن وفود بيت الله الحرام وهو المتكفل لحاج بيته بالإحسان والإكرام وكان

---

[49] سورة الأعراف الآية 157.

قدومنا ليلة الأحد التاسع عشر من ذي القعدة لسنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف[50]، وبعد أن سترحنا قليلاً وسلمنا أمتعتنا لتكون في مأمن ذهبنا إلى المسجد الحرام ودخلنا إليه من باب السلام كما هي السنّة فطفنا بالكعبة المعظمة بعد أن كبرنا وهللنا وصلينا على النبي ﷺ كما جاءت به السنة احترازاً من الشرك الخفي سبعة أشواط. طواف العمرة فإنها عبارة عن الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة مهرولين في الثلاثة الأشواط الأول فقط كما وردت به السنّة.

وبعد ختام الطواف صلينا ركعتين ثم ذهبنا إلى المسعى فسعينا سبعة أشواط بين الميلين الأخضرين نبدأ بالصفا ونختم بالمروة، وحلقنا وقد تحللنا من العمرة ثم رجعنا مع المطوف المومأ إليه وبتنا في رحابه، ثم في الصباح ذهبنا معه لاستئجار بيت فسهل الله لنا ذلك ومن نعم الله علينا أن كان محل إقامتنا قرب المسجد الحرام حتى نبقى مترددين إليه داعين لأنفسنا ولأحبابنا ولمن سألنا الدعاء.

هذا ولكن معلوماً أن الإنسان عند مشاهدة البيت لا يبقى في نفسه إلا ربّ البيت فيسرح عقله في ملكوت رحمة الله تعالى مبدع نظام هذا العالم المحبوب الحقيقي لجميع الخلائق.

لا تسل عن شرح أرباب الهوى ... بين ذي ما تجد الحال شرح

---

[50] 22 نيسان 1929

الفصل السادس عشر

في بيان المنام الذي رأيته وأنا في السفينة

وكنت رأيت رؤيا وأنا في السفينة ليلة الجمعة التي دخلت مكّة المكرمة واجتمعت بأخينا في الله العالم العامل المحدث الشهير والمفسر الكبير مولانا الشيخ محمد علي بن تركي، أيده الله بروح القدس، وشاهدته في مقام عال، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام وابتهج بقدومي وبينما كنا واقفين إذ أقبل علينا صاحب الجلالة مولانا السيد عبد العزيز آل سعود الكرام فقال لي هذا الملك قد أقبل وقد صرح لي أنه يحبكم كثيراً حيث أخبرني أنه يحب الغوريين والعربيين.

وما وصل إلينا لا أدري أسلم علينا أم لا، نظراً للدهشة التي حصلت لي عند مقابلته، وبعد المصافحة أحببت أن أقبّل يده تعظيماً لشأنه نظراً لعدله، فأبى تواضعاً منه حفظه الله تعالى، ثم علمت في اليقظة أن هذا دأبه مع الوفود عموماً لأجل ذلك ذهبت مع رفيقي السيد الأنصاري إلى مدرسته الملاصقة للمسجد الحرام فسلّمت عليه فردّ علينا السلام وعلا وجهه الكريم الحبور حتى صار كالبدر المنير، ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث فكان أول ما سألني عن أصهاري آل بركات الكرام فرداً فرداً، حتى وجدته يحفظ أسماءهم أكثر مني، خصوصاً السيد القاضي الشيخ عبد الباري أفندي بركات والسيد محمود أفندي وإخوته، وقد سألني عن جميع معارفه بالقدس وأخذ مني الجواب.

الفصل السابع عشر

في زيارة سعادة فؤاد بك حمزة ناظر خارجية الحكومة العربية ومدير الأمور الأجنبية

ثم ذهبنا من عنده إلى الحميدية نسبة للمرحوم مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان من آل عثمان رحمه الله تعالى مقر الحكومة السعودية قاصدين زيارة صاحب السعادة المشار إليه صديق أخي شقيقي المرحوم أستاذي العلامة الشيخ علي المبارك، وهم الأفاضل محمد أمين وإبراهيم فوزي ومحمد جمال الدين، ولما دخلنا السراي قابلنا الخادم وأجلسنا في غرفة الانتظار فأرسل السيد الأنصاري بطاقة، فلما وصلت إليه أسرع إسراع البرق لمقابلتنا والترحيب بنا ببشاشة فائقة الحد حتى خطر ببالي أن الله جمع المكارم في شخصه الكريم قائلاً له كوني فؤاد حمزة فكانت إياه ثم إن السيد الأنصاري المومأ إليه قدم إليه تحريراً من جبيله بن إبراهيم، فوضعه أمامه ولم يفتحه قائلاً إني أريد أن أقوم بواجب الخدمة بحيث أذهب بكم إلى الأماكن المقدسة بعد صلاة العصر وهي منى والمزدلفة ومسجد الخيف وعرفات لأحيطكم علماً بتلك الأمكنة المقدسة، إذ لا يمكن إحاطتكم بها تماماً يوم عرفة نظراً لكثرة الحجاج فأجبناه لذلك شاكرين أفضاله الأسمى وقوله إني في هذا اليوم المبارك أرسلت رسولاً إلى المطوف أسأله عنكم حيث شعرت بقدومكم، وقد كنا في الانتظار حيث قرأت الرسالة الأولى من

لرحلة السعودية البحرية النجدية، وقد أمرت بجمع عدد الجريدة «الصراط المستقيم» التي نشرت تلك الرسالة وأشارت إلى نشر الرسائل المتتابعة بكونها منسوبة إلى مليكنا المعظم صاحب الجلالة عبد العزيز آل سعود الكرام. ثم إنه بعد صلاة العصر حضر سعادة الناظر المشار إليه بسيارتين، سيارة للرجال وأخرى للنساء، حيث كان معي أهل بيتي فركبناها وتوجهنا لتلك الأمكنة المباركة، فلما وصلنا المنحنى قال فؤاد: هذا المنحنى الذي تغزّل فيه ابن الفارض فقال

من بين ضال المنحنى وظلاله ... ضل المتيم واهتدى بضلاله

ثم سار بنا إلى منى ثم المزدلفة أي جمع التي اجتمع فيها آدم وحواء عليهما السلام وازدلف إليها، ثم إلى عرفات وقد أجلسنا على جبل الرحمة بجانب عين زبيدة رحمها الله تعالى وقد سررنا سروراً لا مزيد عليه. وبعد إقامتنا ساعة من الزمن قفلنا راجعين فأدركنا صلاة المغرب في منى فصليناها، ثم ذهبنا إلى مكة المكرمة. وفي يوم الاثنين الموافق عشرين من هذا الشهر دعانا سعادته لطعام الغداء، تكريماً لنا حفظه الله تعالى، ولدى المذاكرة مع سعادته وغيره من فضلاء القوم قلت إنه لابدّ للملوك وأمراء وعلماء الإسلام من القيام بما يجب عليهم من العمل بالشريعة الغراء لأنها الحصن المنيع من تسلّط الأعداء عليهم وهي العمدة في رقيهم الديني والدنيوي وهي العامل الأكبر على نهضتهم السياسية.

الفصل الثامن عشر

في بيان أن نجاح الأمة الإسلامية متوقف على العمل بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام

وفي رأيي أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهو الاعتصام بما جاء به المصلح العظيم سيد الخلق على الإطلاق الذي بعث لأجل تتميم مكارم الأخلاق المنزل عليه ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [51] فالسعي في تأليف القلوب، والارتباط بالعالم الإسلامي بعضه ببعض متوقف على العمل بما صرح به الكتاب العزيز ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [52] وجاء به الرسول المبعوث رحمة للعالمين. وبغير المشي على منهاجه القويم، والسير على صراطه المستقيم، لا يمكن أن نفوز بالسعادة الأخروية، كما أنه لا يمكن أن نفوز في المعترك السياسي فوزاً عظيماً، ونقهر دعاة الاستعمار الأشرار الذين يتظاهرون بحب الإنسانية والشفقة على عباد الله، مع أنهم ألدّ أعدائها، وإنما تظاهروا بذلك توصلاً إلى هدم صرح الإسلام المنيع والذي لا يمكنهم هدمه، بل هو باق إلى يوم القيامة محروساً بعناية الله تعالى حيث بناه على أساس العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم

(51) سورة القلم، الآية 4

(52) سورة آل عمران، الآية 103

قال الله تعالى في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[53] ولا ريب في أنه على الباغي تدور الدوائر.

وللبغـــي مرتـــع مبتغيـــه وخـــيم

ولو بغى جبل على جبل لدك الباغي

والعاقبة للمتقين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون وليعلموا أن الله لهم بالمرصاد، ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وإني لهم ناصح أمين ولا يغرّنهم ما نحن عليه من الخمول فما آن لنا أن نفيق من ذلك السبات العميق فنمضي على تلك الآمال والأحلام التي يستحيل بعونه تعالى تحققها، فإن الله تعالى حافظنا من كيدهم ومكرهم السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

هذا ثم إنه في يوم الثلاثاء الموافق الواحد والعشرين من الشهر المذكور قصدت زيارة مطبعة أم القرى، فتشرفت بمقابلة أخينا الفاضل الأديب المتخلق بالأخلاق الكريمة الأستاذ السيد رشدي أفندي ملحس فقابلنا بوجهه البشوش،

[53] سورة النحل، الآية 90

ولك تجاذب أطراف ملح الحديث وجدناه متحلقاً بالأخلاق الرضية ومتحلياً بالآداب النفسية ومتفانياً في خدمة مولاه الملك الجليل. والمشار إليه حلو المفاكهة والنبه فبارك الله في جلالة مولانا الملك العادل على حسن اختياره لأمثاله الأمناء. وهذا من توفيق الله لعبده محبوب القلوب الإمام المشار إليه

العصل التاسع عشر

في بيان أنه لابد لكل حاكم من بطانتين بطانة خير وبطانة سوء

وقد شاهدت أن بطانته بطانة خير وأنها لا تزال مجتهدة في نشر محاسن مولانا صاحب الجلالة المشار إليه وقد خطر ببالي أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد ملك من الملوك أو أمير من الأمراء أو وال من ولاة الأمور فيض له بطانة صالحة تساعده على عمل الخير وتحضّه عليه بخلاف ما إذا أراد به سوءاً والعياذ بالله

وليكن معلوماً للعموم أن الوالي مثلاً لابد وأن يكون لديه بطانة خير وبطانة سوء، فإذا غلبت بطانة الخير بطانة السوء سعد وفاز فوزاً عظيماً وإذا غلبت بطانة السوء بطانة الخير شقي وخذل خذلاناً مبيناً. فيهنأ مولانا إمام الإسلام بغلبة بطانة الخير على بطانة السوء، وبفوزه فوزاً عظيمًا لتمسكه بالشريعة الغرّاء وعمله بحديث «أنزلوا الناس منازلهم» وأن

هذا العاجز يبارك له بهذا التوفيق الذي منحه الله إياه داعياً له بدوام التمسك بالعدالة التي نشرت لواء الأمان والاطمئنان على ربوع الحجاز بعد أن كانت مثوى لقطاع الطريق وكان ابن السبيل لا يأمن على دمه وماله خصوصاً حجاج بيت الله الحرام، فقد كانوا فريسة للأشقياء حتى في زمن الدولة العلية العثمانية فنسأل الله تعالى دوام آل سعود العادلين ليكونوا ملجأ للإسلام يفزع إليهم عند الشدائد وما ذلك على الله بعزيز

الفصل العشرون

في بيان التشرف بدعوة رئيس السدنة الشيخ عبد القادر أفندي الشيبي

وفي اليوم المذكور بينما كنت جالساً عند حلو الفكاهة المشار إليه محرر جريدة أم القرى الغرّاء، إذ جاءني رسول من قبل رئيس سدنة الكعبة الشريفة المعظمة مولانا الفاضل الكريم السيد عبد القادر بن علي الشيبي، من آل شيبة الكرام ابن طلحة بن عبد العزى بن قصي القرشي حفظه الله تعالى، يدعوني لرحابه الرحيب فلبيت دعوته شاكراً له تعالى على حسن صنيعه بهذا الحقير، ثم ذهبت لسدته الشريفة وحظيت بصالح أدعيته اللطيفة، وكان عندي هذا اليوم عيداً سعيداً حيث شاهدت من من الله تعالى على عبده الضعيف ما لا يمكنه حصره، وبينما كنا نتحدث معه تذكرت قوله تعالى ﴿إِنَّ

اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[54] ومن المعلوم أن هذه الآية الشريفة نزلت بعد أخذه ﷺ طلب المفتاح منه فأرسل إلى والدته أن أرسلي المفتاح إلى رسول الله ﷺ فامتنعت فذهب إليها بنفسه ليحضره إلى رسول الله ﷺ فقالت له إذا أخذ المفتاح منكم فإنه لا يرجع إليكم أبداً، فقال لها لابد من تسليمه إلى رسول الله ﷺ، فسلمته لولدها فسلمه له عليه الصلاة والسلام. وكانت قريش تعتقد أن الكعبة المعظمة لا يقدر على فتحها أحد غير آل شيبة، فلما فتحها رسول الله ﷺ تعجبوا من ذلك، وعندئذ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: الحمد لله الذي جعل فينا النبوة والسقاية والسدانة، فكره ذلك رسول الله ﷺ ونزل الوحي بقوله تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان أشار إليه وأعطاه المفتاح فقال رضي الله عنه يا رسول الله أبأمر من تلقاء نفسك يعني هذا العطاء، أم أمرك الله بذلك؟ فقال ﷺ بل أمرني الله بذلك. فشكر عثمان رضي الله عنه الله على هذه النعمة الجزيلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً له: إن السدانة فيكم إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم

---

(54) سورة النساء، الآية 58

ثم قال له كلوا من هذا البيت بالمعروف فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يعارضهم في السدانة وهذه بشارة من خير الأنام لهذه العائلة الكريمة بدوام السدانة لهم إلى انقراض الدنيا وها نحن في القرن الرابع عشر، وهذه الأسرة الكريمة بيدها المفتاح ولا ريب في أن هذا الخبر القاضي ببقاء السدانة في آل شيبة إلى يوم القيامة من الأخبار بالمغيبات، وهو معجزة من معجزاته ﷺ الكثيرة العدد

هذا، وفي يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من الشهر المذكور بعد أن صلينا صلاة الجمعة هنا مع محسوب الأفضل ماجد مكة المكرمة مولانا الشيخ ماجد الكردي ناظر الأوقاف والحرم الشريف إلى زيارة الفاضل الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار سبط خاتم المحققين الأخيار مولانا المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار من أعظم فضلاء دمشق الشام التي تشرفت بزيارته في محلة الميدان إحدى محلاتها، وقد كانت تلك الزيارة لمصيبته سنة ثماني عشرة وثلاثمائة وألف هجرية الموافق 900 م وما تشرفت بمقابلة سبطه المشار إليه وجدت وجهه يطفح نوراً، فقلت في نفسي لا شك في أن الولد سر أبيه ولا يخفى أن محبة الآباء متصلة بالأبناء فلا عجب إذا شغفت حباً به إذ لا خير فيمن لا يحب ولا يحب ولا ريب في أن المحبة الإلهية هي السبب في وجود هذا العالم البديع كما ورد في الحديث القدسي «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني» وإن قال بعض المحدثين إنه موضوع إلا أنه يستأنس به في هذا المقام

الفصل الحادي والعشرون

في بيان الشرف بدعوة ماجد مكة المكرمة

وبعد صلاة عصر هذا اليوم في المسجد الحرام تشرفت بزيارة ناظر الأوقاف والحرم الشريف وصاحب مطبعة الترقي ماجد مكة المكرمة المشار إليه بدعوة منه إلى ساحته الفيحاء ومنزله الرحيب مجمع الفضلاء فرأينا من كرم الضيافة والأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة وإخلاصه في حب صاحب الجلالة الملك العادل السعودي ما أدهشنا، ولا غرابة في إخلاصه لذلك المقام الذي في عزه عز الإسلام وللأستاذ المشار إليه المكتبة الكبيرة الشهيرة الخصوصية لحضرته منذ نشأته حفظه الله تعالى وحفظ كتاب الله المجيد وحرسهم بعين عنايته وأيدهم بروح منه بمنه وكرمه. وقد سررنا كثيراً من هؤلاء الأشبال فهم نجوم الفضيلة حول والدهم ذلك البدر المشرق في أفق مكة زادها الله شرفاً ورفعة ومهابة وجلالاً وتعظيماً وقدراً. وقد ألقى لدينا أحدهم الفاضل الأديب محمد صدقي الكردي أحد أساتذة المعارف الأميرية خطبته التي ألقاها أمام صاحب الجلالة الملك المعظم يوم وصول ركابه العالي من نجد إلى مكة المكرمة في العام الماضي حين ما كان والده الجليل وكيلاً لإدارة المعارف العمومية بحضور الجمهور المحتشد لدى تشرف بمقابلة جلالته وقتئذ، وقد برهن على أن أفاضل الحجازيين المخلصين

له بنهم وأمتهم ومليكهم المعظم يشكرونه تعالى الذي منحهم هذا الإمام المصلح الكبير.

وقد وقف على محبة كثير من أفاضل الحجازيين لأعمال جلالته المشكورة التي منها استحباب لجنة من أفاضل العلماء في كل بلدة للقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملاً بدلالة الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[55] ولا ريب في أن تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق كما صرح به الإمام عبد القاهر إمام فني المعاني والبيان، والحديث الشريف ﴿لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم﴾ والحديث ﴿من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان﴾ ويعني بالطلب. وللقيام بهذه الوظيفة شروط منها أن يكون عالماً بالمذاهب التي جرى عليها المسلمون حتى يحق له ذلك.

---

(55) سورة آل عمران، الآية 110.

الفصل الثاني والعشرون

في تحرير الخطبة التي خوطب بها صاحب الجلالة الملك عند قدومه إلى مكة المكرمة

وقد تلاها بحضور هذا العاجز في بيت والده الكريم

فأحببت أن أنشرها في هذه الرحلة وهذه صورتها

السلام عليك يا صاحب الجلالة ورحمة الله وبركاته، لقد أشرقت شمس طلعتكم على ربوع هذه الديار المقدسة، فاستبشرت الوجوه وفرحت القلوب وقرّت الأعين، ونادى منادي السرور مرحباً بكوكب فلك المجد وبدر أفق السعد، مرحباً بخير قادم، وأكرم وافد، مرحباً بمقدم مليكنا المعظم بطل الإسلام، وحامي ذمار الأمة العربية، يا مولاي تنقلت من بلدة إلى أخرى كما يتنقل البدر في السماء، فأرويت قلوباً عطشى إلى لقائك، وقد كنت موضع الإجلال أينما حللت وحيثما سرت، وكالغيث أينما وقع نفع أي مليكنا المعظم إن الأمة إذا رأت في شخص مليكها سمات اليمن وخصال المجد، كانت أولى أن تحوط ملكه بنفوسها وتحرسه بقلوبها، وقد رأيت فيك والحمد لله كل كمال يؤهلك لأن تسوس رعيتك أفضل سياسة، فلا بدع إذا رأيتنا ملتفين حول عرشك فرحين بيوم قدومك داعين الله أن ينصرك نصراً عزيزاً وهذه طبقات الشعب أتتك مهنئة بسلامة عودتك معبرة عما تُكنه أفئدتها من الفرح والحبور في سبيل الله فرفعت هذه الديار مروراً بالدعاء من الألسنة والقلوب لتتفقد أحوال رعيتك وتلم شعثهم وتهيب بهم إلى ما يعلي شأنهم ويصلح ذات بينهم،

فكان سعيك مشكوراً وعملك مبروراً في سبيل الله أعمالك الجليلة فلقد جددت معالم هذا الدين وأحييت سنة سيد المرسلين، ونشرت العلوم والمعارف وناديت في قومك هبوا يا قوم إلى طريق العلا، إلى طريق المجد الى طريق السعادة الأبدية فأجابوك بألسنة ملؤها الشكر والثناء: حيهلا بالداعي إلى الرشد، والمقتدي بالهدى، والمقتفي أثر الكرام الصيد، وقد رأوا فيما ناديتهم همة شماء، وعزة قعساء، وعدلاً شاملاً وقوة يحول الله عظيمة، واتحاداً في الأخلاق والقلوب، وإخلاصاً في القول والعمل. فأهلاً بهذا المجدد وأهلاً بداعي الخير والصلاح، فسر بنا أيها الملك المحبوب في هذه السبيل التي بها تصلح حالنا ويسعد مآلنا، واجعل الصبر عدة والإيمان قوة، ولا تحفل بقول المرجفين، وسعاة الباطل فالباطل مضمحل، وإنما بقاؤه بسبب إمهال الحق له. أمدك الله بروح من عنده، وأعلى بك كلمة المسلمين ورفع بعرك منار الحق واليقين، ووفقكم وأنجالكم الأمراء الكرام، ورجال حكومتكم الفخام إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذا وفي يوم السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور ذهبت إلى زيارة الكعبة المشرفة فدخلتها وصليت فيها ثمان ركعات كل ركعتين على حدة في أماكن مختلفة لعلي أصادف المحل الذي صلى فيه رسول الله ﷺ وكان الأولى في أن أصلي ركعتين فقط اقتداء برسول الله ﷺ ولكن الدهشة أنستني تلك السنة

الفصل الثالث والعشرون

في بيان إدارة الصحة العامة

وأوصاف مديرها المحبوب وإخوانه الأطباء الكرام

وبعد ذلك ذهبت إلى دائرة الصحة العامة والمستشفى الملكي السعودي فقابلني مديرها المحبوب سعادة السيد محمود بك حمدي، الذي بمجرد وقوع نظر القادم عليه يود أن لا يفارقه لما يشاهد فيه من الرقة واللطف والخلق الحسن

هذه المزايا التي طبعه الله عليها بغير تكلف منه حفظه الله تعالى فلا بدع إذا أحبته القلوب فهو طبيب الأرواح كما أنه طبيب الأشباح، ومحمود الخصال كاسمه بارك الله فيه وفي إخوانه الأطباء الذين يساعدونه على تنظيم هذه الإدارة وخدمة المرضى اللاجئين إلى المستشفى الملكي المشار إليه. وقد أفادني أن الفضل في تنظيم هذه الإدارة وتوسيع نطاقها يرجع إلى رغبة واهتمام مولانا الإمام السعودي الذي يهمه إعلاء شأن البلاد المقدسة الحجازية. والذي اتضح فهو أن حضرة المدير المشار إليه من دمشق الشام كما أن إخوانه من سورية وفلسطين جزاهم الله جميعاً عن الإسلام خيراً، لا سيما مساعدة الدكتور حسني بك نجل صديقي المرحوم صدقي بك الطاهر النابلسي من آل الطاهر المحترمين

وفي المدينة المقدسة وعشرين منه تحقق لي أن سلالة الأشراف من آل عبد مناف مولانا الخليل السيد أحمد

السنوسي ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد ابن السيد علي السنوسي المجاهد الكبير موجود في مكة المكرمة فقصدت زيارته لاغتنام أدعيته المباركة ولا ريب في أن دعاء أمثاله مستجاب كيف لا وهو الذي أبلى في الدفاع عن الأمة الإسلامية بلاء حسناً حتى صارت تضرب بهمته الأمثال، فذهبت إلى جبل أبي قبيس حيث يسكن في الزاوية التي بناها جده رحمه الله وقد فهمت منه أن مولده كان في جغبوب التي ملكها السلطان المرحوم عبد الحميد خان من آل عثمان لجده، ليلة الأربعاء الموافقة لتسع وعشرين من شوال قرب الفجر سنة تسعين ومائتين وألف [25 كانون الأول 1872م] ولا يخفى أن هذه الولادة في الوقت المذكور فيها إشارة خفية إلى أن المولود الكريم يزداد نوراً شيئاً فشيئاً حتى تشرق شمس كمالاته على العالم الإسلامي في وقت الضحى فكان الأمر كذلك.

وقد كنت تشرفت بمشاهدته في القدس الشريف حينما قدم زائراً للمسجد الأقصى وحظي بدعواته المؤمنون وألقى درساً في جامع صخرة الله المشرفة منذ أربع سنوات، ورجوت من سيادته أن لا ينساني ووالديني وأهلي وعشيرتي وأحبابي وأصحابي من دعواته، والحمد لله الذي جمعنا به على أحسن حال في جوار بيت الله الحرام أسأله تعالى وهو خير مسؤول أن يديمه مظهراً من مظاهر عز الإسلام إنه سميع الدعاء. وبالمناسبة سألت مولانا المشار إليه هل هو مستريح في مكة

المكرمة ومسرور من عمال صاحب الجلالة الملك السعودي، فاتني خيراً ودعا لجلالته وله حيث أكرم مثواه أعز الله به الإسلام ونفع به الأنام بنفسه وكرمه. ثم إنه قبل حضور صاحب الجلالة من نجد إلى مكة المكرمة بعد عروجه على المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم بأسبوع ودعني فؤاد السياسة العربية قاصداً التشرف بمدينة مولانا الإمام المشار إليه. وقد أخذ معه فؤادي فأنشدت قائلاً

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي   يضركم لو كان عندكم الكل

وبالقدر الإلهي أصبحت منحرف المزاج وكأن صحتي ذهبت بذهابه وقد اشتدت حرارة البلد الأمين فوقعت طريح الفراش. ولما علم بذلك مدير الصحة العامة والمستشفى الملكي السيد محمود بك الهمام المشار إليه حضر عندي مع مساعده حسني بك الطاهر عائداً. وأعطى العلاج ثم بعد ثلاثة أيام حضر أيضاً ورأى من اللزوم ذهابي إلى المستشفى المذكور، فلبيت دعوته شاكراً عطفه الجليل وقد أقمت فيه تحت رعايته مدة إقامتي في مكة المكرمة وقد اهتم بخدمتي اهتماماً يذكر فيشكر. وكان قبل مرضي بيومين قد دعاني إلى رحابه الرحيب أنا وحاشيتي مع عشرة من أعيان مكة المكرمة منهم صاحب الفضيلة القاضي بمكة حضرة السيد عبد الكريم أفندي الخطيب. صهر مولانا ماجد مكة المكرمة الشيخ ماجد أفندي الكردي المنوه باسمه سابقاً إلى تناول العشاء فحال بيني وبين إجابة دعوته المرض ولما كان رفيقي

السيد فائق الانصاري من خمسة المدعوين أحبابه المدعوة بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عني وقد أفادني أن صاحب المدعوة أحضر رجلاً من أفاضل القراء كي يتلو عشراً من القرآن الكريم فسر الحاضرون سروراً لا مزيد عليه. وكان قصده حفظه الله أن يعرفني بجملة من الأعيان الفضلاء فصنع تلك الوليمة التي كانت غاية في الإتقان كما أفادني رفيقي الموما إليه.

الفصل الرابع والعشرون

في بيان الاحتفالات بقدوم جلالة الملك والتحارير التي أرسلت إلى هذا العاجز

وقبل قدوم الركاب العالي بيومين أرسل لي رئيس لجنة الاستقبال أمين العاصمة الفاضل الكريم السيد عباس أفندي القصاب يدعوني إلى استقبال جلالته بتذكرة هذا نصها

بحمد الله تعالى سيشرف جلالة مليكنا المعظم المحبوب عاصمة ملكه يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية فتتشرف لجنة الاستقبال بدعوة حضرتكم للحضور إلى ميدان الحرول في الساعة الحادي عشرة صباحاً من اليوم المذكور للتشرف باستقبال جلالته وتقديم عبارات التهاني بسلامة الوصول. كما وأن اللجنة تدعو حضرتكم للحضور إلى حفلة المأدبة التي ستقام تكريماً لجلالة الملك المفدى بدار المؤتمر بالأعياد في

الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء يوم الخميس الموافق تسعة وعشرين من الشهر المذكور، والله يرعاكم».

وحيث أنني لا قدرة لي على تلبية الدعوة ذهب رفيقي السيد الأنصاري المومأ إليه بدعوة من اللجنة المومأ إليها وتشرف باستقبال جلالته وشاهد الحفلة المذكورة وتناول الطعام من المأدبة التي أقيمت تكريماً لجلالته وشاهد الألوية السعودية الخضراء المكتوب في وسطها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقد سمع خطاب الملك المملوء بالمواعظ والحكم الدينية والسياسية. ومن جملة أقواله حفظه الله تعالى أنه لا يرهب أوربا ولا يخاف منها فإن عنده جيشاً منظماً متمسكاً بالشريعة الغراء، وهي حبل الله المتين الذي من تمسك به فاز في الدنيا والآخرة، ولكنه يخشى من المسلمين، يعني بذلك نصره الله وأيده بروح القدس: المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وهو براء منهم ولأن فإن المسلمين الحقيقيين المتمسكين بالشرع الشريف والدين الحنيف لا يخشى منهم فإنهم ينصرونه على الدوام ويقدسون أعماله ويلتفون حوله ويظاهرونه على أعداء الإسلام، كأنه حفظه الله تعالى يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[56] وهؤلاء المسلمون

(56) سورة الحجرات الآية 14

أمثال فيصل الدويش[57] الخارجون عن طاعة الإمام والذين في قلوبهم مرض من الشقاق والنفاق، الذين يعيثون في الأرض فساداً والله لا يصلح عمل المفسدين فهم يقطعون الطريق متظاهرين أنهم على الحق فيعتدون على أبناء السبيل ولا يخافون عاقبة البغي والعدوان والله يقول ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[58] وهذه الآية نزلت في حق قطاع الطريق فأشبههم الله وشبيهه فيصل الدويش المذكور ومن على شاكلته البغاة، الذين يتحركون بأصابع الأجانب الذين هم ألد الأعداء للموحدين.

هذا، ثم إنه جاءتني دعوة ثانية من رئيس لجنة الاستقبال المشار إليه وهذه صورتها:

«تتشرف لجنة الاستقبال بدعوة حضرتكم إلى حفلة الشاي التي ستقام بقصر المنصور بالزاهر في الساعة العاشرة من يوم الجمعة الموافق ثلاثين من ذي القعدة لسنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف تكريماً لجلالة مليكنا المفدى المحبوب على أن يكون الاجتماع بمركز أمانة العاصمة في الساعة

---

(57) فيصل بن سلطان الدويش (1882-1930م) (1299-1349هـ) زعيم حركة الإخوان وأحد شيوخ مطير، تولى المشيخة بعد وفاة والده عام 1325هـ.

(58) سورة المائدة الآية 33.

المذكورة حيث قد أعد ب الحفلة سيارات لنقل المدعوين إلى موقع الحفلة. وأباري يرعكم».

وحيث أن الداعي كان مريضاً فلم يكن في مقدرتي إجابة الدعوة كما أن رفيقي السيد فائق الأنصاري كان منحرف الصحة أيضاً فلم يستطع الإجابة وإن كان مدعواً. ثم إنه بلغني من بعض الأفاضل الذين حضروا الحفلة المشار إليها أن حضرة المحامي الشهير الفاضل الخطيب المفوه والصحفي والنابغ المشهور السيد سليمان أفندي الفتحي الرومي ألقى خطاباً بحضور جلالة الملك حث فيه الأمة العربية على توحيد الكلمة والدفاع عن حقوقها المغصوبة التي غتصبها الأجانب بغير مسوغ، وقد أجاد في تلك الخطبة حق الإجادة فوقعت موقع الاستحسان والقبول لدى جلالة الملك والمدعوين عموماً، خصوصاً أفاضل نجد وشيوخ القبائل حفظه الله تعالى.

ثم إنه حضر إلى المستشفى الملكي سعادة السيد فؤاد بك حمزة المنوه باسمه مراراً فيما سبق، ليعودني وحضر معه صديقنا الشهم المعظم الفاضل الكريم السيد يوسف يس المخلص والمتفاني في خدمة صاحب الجلالة ملك العرب، تاج هام الإسلام ناشر ألوية العدالة على الأنام السيد عبد العزيز آل سعود الكرم حفظه الله تعالى وأنجاله الغر الميامين، خصوصاً ولي عهده سمو الأمير سعود المحبوب ونائب جلالة الملك المعظم سمو الأمير فيصل أمير مكة المكرمة، هذا وكان

حاضراً وقتئذ سعادة مدير الصحة العامة الدكتور محمود بك حمدي، وبما أنني لم أعرف السيد يوسف بن نظراً لتغير هيئته قال لي جناب الفؤاد إن هذا هو صديقك السيد يوسف بن فسلمت عليه ثانياً. وقد سلمني فؤاد بك المومأ إليه تحريراً ممضياً بإمضاء أمين العاصمة السيد عباس أفندي يوسف القطان يدعوني به إلى تناول طعام العشاء وها هي صورته

«باسم جلالة مولاي الملك المعظم أتشرف بأن أدعو حضرتكم للحضور إلى القصر العالي الملوكي بالمعابده قبل صلاة مغرب هذا اليوم لتناول طعام العشاء على أن يكون الاجتماع بدار الحكومة السنية الساعة إحدى عشر ونصف إذ إن السيارات تقل المدعوين إلى القصر العالي في الوقت المنوه عنه. والباري يرعاكم.

في اليوم الخامس من ذي الحجة لسنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف»

فاعتذرت بعدم الاستطاعة حيث أنني عاجز عن التشرف بمقابلة جلالة الملك ورجوتهما أن يبلغا سلامي ودعواتي لجلالته سائلاً منهما أن يطلب لي من جلالته أن يدعو لي بالشفاء.

الفصل الخامس والعشرون

في تبليغ السيد يوسف يس سلام مفتي القدس الشريف

وقد بعث الفاضل السيد يوسف يس أحد مرافقي لجلالة الملك والكاتب الخاص سلام صاحب السماحة مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالديار القدسية السيد محمد أمين أفندي الحسيني، نجل محبوب القلوب بحر الكرم الزاخر سيد المتواضعين في عصره وإمام الأوفياء في دهره حتى كان يضرب بوفائه لأحبابه الأمثال وإن ساحته المشار إليه كانت محط رحال الآمال لبني الغبراء السيد محمد طاهر أفندي الحسيني مفتي الديار المقدسة في عصره رحمه الله تعالى وكأن لسان الحال منه يقول

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد

وأخوه قرة عيون الأحبار السابق في مضمار الفخار ولد العلامة الفاضل السيد محمد كامل الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس محكمة الاستئناف الشرعية العليا صاحب النفس الكبيرة مع التواضع وعلو الحسب، الذي لم يأذن لحاكم القدس بالدخول عليه ومعه والدته نظراً لإساءته في ذلك اليوم إساءة لا تتحملها النفوس الأبية، حتى أنه رحمه الله رد النيشان العالي أعلى وسام بريطانيا، أول وسام أعطته في فلسطين لسماحته، فبعد اللتيا والتي، وإصرار ممثل الحكومة الفلسطينية على قبوله مرة ثانية مع إصرار أصدقائه على

حدته قلبه، ومع ذلك بقي متأثراً من تلك الإساءة حتى توفي
إلى رحمة الله تعالى فقضى نحبه مأسوفاً عليه

فقال جناب السيد يوسف بس المشار إليه إنه وصلني
تحرير من لدن سماحة المفتي يوصيني فيه بالقيام بما
تحتاجون إليه وها ما تحت أمركم فماذا تريدون؟ فأجبته
بأني لا أريد إلا الدعاء وليس لي شغل سوى أداء الفريضة،
ثم قلت لجنابه إن حضرة المفتي عند وداعي له عرض علي أن
يصحبني بذلك التحرير فاعتذرت لسيادته قائلاً إن
الصداقة التي بيني وبينك تقضي بعدم حمل كتاب مشتمل
على الوصية بي، ولكن إذا شئت إرساله فليكن في البريد،
فقال حفظه الله إن الكتاب مشتمل على هذه القصة تماماً،
ثم ذهب مع فؤاد بك المذكور عند جلالة الملك

الفصل السادس والعشرون

في زيارة أحد رجال الوفد اليماني لهذا العاجز ومذاكرتنا معه

وفي ثاني يوم، بينما كنت نائماً على السرير إذ أقبل أحد
خدمة المستشفى قائلاً إن أحد رجال الوفد اليماني المرسل
من قبل صاحب الجلالة الملك يحيى حميد الدين حضر
لزيارتكم، فقمت كلما تمكنت من عقال ورحبت به ترحيباً
يليق بمثله، ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصلنا
إلى الحالة السيئة التي وصل إليها المسلمون عموماً والأمة

العربية خصوصاً من أجل تفرق الكلمة، وعدم إسناد الزعامة إلى إمام واحد متمسك بالعمل بالشريعة الغراء تمسكاً يذكرنا بأحد القرون الثلاثة القائل عنها عليه الصلاة والسلام «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وإني أرى أن هذا القول ينطبق على الإمام عبد العزيز نصره الله فيجب على الأمة العربية بل الأمة الإسلامية جميعها أن تلقي إلى جلالته بمقاليد الزعامة حتى ينقذها من الحضيض الأسفل إلى الأوج الأعلى، وما ذلك على همته بعزيز

ووجب نصب الإمام عدل   بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

بل قال بعضهم إنه يجب نصب الإمام بالعقل ولو لم يرد بذلك الشرع لأن الجمعية البشرية لا بد لها من وازع يرجع إليه لتأمين العدالة ولضرب بعصا من حديد على أيدي ذوي الجهالة الذين يعيثون في الأرض فساداً وبيان ذلك أن الإنسان مدني بالطبع فلا يمكنه أن يعيش منفرداً بنفسه بعيداً عن أبناء جنسه فالاختلاط والمعاشرة بين الناس ربما تؤدي إلى تعدي القوي على الضعيف فيتوجه إلى ذلك الإمام ليصل إلى حقه بقوة سلطانه المخول إليه نصر المظلوم من الظالم، فلابد من اتفاق الكلمة حتى لا يحارب المسلمون بعضهم بعضاً قال عليه الصلاة والسلام ﴿إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قلت هذا القاتل فما بال المقتول يا رسول الله؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه﴾ وقد قال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع ﴿لا ترجعوا بعدي كفاراً

بضرب بعضكم رقاب بعض﴾ فقال المشار إليه إن ما تدعو
إليه حسن جداً، ولكن كما لا يخفاكم، لا يمكن الإمام يحيى
حميد الدين أن يتنزل عن ملكه، فأجبته إنك لم تفهم المراد
الذي أردته من توحيد الزعامة في شخص الإمام عبد العزيز
وبيان ذلك أن مقصودي أن يكون كل واحد من ملوك الإسلام
متصرفاً في ملكه كما تقتضي به التعاليم الصحيحة الدينية،
هذا في زمن السلم أما إذا تعدت إحدى الدول على بلدة من
بلاد الإسلام فإنهم يكونون يداً واحدة في الدفاع عن بلاد
الإسلام، ويكون القائد العام هو الإمام عبد العزيز آل سعود
وإني أضرب لحضرتكم مثلاً بالأمة الألمانية التي تعددت
ملوكها ولم يكن لهم رابطة يجتمعون إليها كانت تسام الذل
والهوان، ولكن لما توحدت كلمتها من جهة العسكر فقط وبقي
كل ملك مستقلاً في بلاده صارت محترمة لدى دول أوروبا
وبلغت سطوتها جميع الدول وكذلك الولايات المتحدة وهذا
الكتاب العزيز بين أيدينا يدعونا إلى اجتماع الكلمة وعدم
التفريق والتنازع قال الله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا
وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [59] ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على
الإثم والعدوان﴾ [60] وإني أرجوك أن تبلغ صاحب الجلالة
الإمام الجليل السيد يحيى حميد الدين تحياتي الجليلة

---

(59) سورة آل عمران، الآية 16.

(60) سورة المائدة، الآية 2.

ودعواتي لسيدته وأنجاله الأشبال المعظمين، خصوصاً سمو الأمير أحمد سيف الإسلام وثنائي على أهل اليمن، كما أثنى عليهم جده الأعلى عليه الصلاة والسلام، حيث قال ﴿إني أشم نفس الرحمن من جهة اليمن والإيمان يمان والحكمة يمانية﴾ وقد قال عليه الصلاة والسلام ﴿يد الله على الجماعة﴾ ولا يخفى أن اجتماع كلمتي الإمامين الجليلين باطناً وظاهراً يكون سبباً عظيماً لاحترامهما بل لاحترام الأمة العربية، بل لاحترام الإسلام والمسلمين في نظر الأغيار. ثم ودعني داعياً لي بالشفاء، ثم عدت إلى سريري كما كنت قبل مجيئه منتظراً الفرج والشفاء من الله تعالى.

الفصل السابع والعشرون

في بشارة السيد فائق الأنصاري برجوعنا للوطن سالمين بسبب الدعاء الصادر من مرشد مكة المكرمة وإخوانه

وعندنا أن الدعاء ينفع ... كما من القرآن وعداً يسمع

ثم إنه ثاني يوم بعد صلاة العصر حضر رفيقي السيد فائق الأنصاري وأخبرني بأن الجليل الوجيه والصديق الصدوق الصفي التقي الصالح المتفاني في حب العلماء والصالحين والحكام العادلين، خصوصاً بالأفاضل المحدثين حضرة الشيخ محمد أفندي الكردي ناظر الأوقاف وشيخ الحرم وثلة من الأتقياء، بعد أن صلوا صلاة الظهر في المسجد الحرام ذهبوا جميعاً إلى قرب الكعبة المشرفة وشرعوا داعين أكمل الدعوات

إليه تعالى مبتهلين سائلين منه شفاءك ورجوعك سالماً مع حاشيتك، وكانت دموع الشيخ المشار إليه تتساقط من عينيه تساقط المطر لا بد لابد وأن نرجع سالمين ببركة ذلك الدعاء فبشر باستشفاء العاجل فانشرح صدري، لذلك ودعوت لهم كما دعوا لي حفظهم الله تعالى.

وفي يوم الخميس الموافق السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، حضر إلى المستشفى الملكي حضرة السيد فائق الأنصاري وأخبرني أن فضيلة القاضي ثبت لديه أن أول الشهر هو يوم الجمعة، فيكون يوم السبت الوقوف بعرفة، وأن الفاضل الكريم الشيخ ماجد المشار إليه يدعوك مع الحاشية بأن تكون جميعاً ضيوفاً له خصوصاً أيام رمي الجمار، فإن لسيادته في منى داراً فسيحة قابلة للضيوف، فقبلت دعوته شاكراً أفضاله بالنسبة للحاشية. أما بالنسبة لي فليس في وسعي ركوب الدواب، وذلك أن صاحب الجلالة وأفراد العائلة المالكة والوزراء والأشراف لا يركبون إلا الدواب شفقة على الحجاج، حتى لا يلحقهم ضرر من السيارات. ولذلك صدرت إرادته المطاعة بعدم ركوبها لأحد ما سوى الموجودين في المستشفى المشار إليه. لذا أرجح ركوبها حيث أنها أسهل على هذا العاجز من ركوب غيرها.

الفصل الثامن والعشرون

في الإحرام بالحج والذهاب إلى عرفات راكباً السيارة مع محمود الخصال، وبيان شفقة مولانا الإمام على حجاج بيت الله الحرام

وفي التروية بعد صلاة العصر احضر لي لرفيق المومأ إليه لوازم الإحرام، فاغتسلت عملاً بالسنة، وصليت ركعتي سنة الإحرام وأنا في المستشفى، وأحرمت قائلاً اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني لبيك بحجة لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك.

وفي يوم السبت التاسع من الشهر المذكور بعد طلوع الشمس بمقدار ساعة توجهت إلى جبل عرفات حيث تعارف آدم وحواء عليهما السلام صحبة مدير الصحة العام محمود الخصال المومأ إليه، وقد كان حفظه الله تعالى يأمر بالوقوف عند كل مظلة من تلك المظلات الكثيرة التي أحدثها جلالة الملك السعودي لراحة حجاج بيت الله الحرام، ليمتش على كل مركز من مراكز الأطباء الموجود عند كل مظلة ويتفقد أحوال المشاة المستظلين من حر الشمس وقد جعل عند كل واحد منها عيناً من الماء العذب، ولم تكن في زمن من الأزمان التي مضت تحت حكم غيره، فلا عجب إذا اختاره الله لخدمة بيته الحرام وخدمة مسجد نبيه عليه الصلاة والسلام وحراسة

الـدبر المباركه الحجا ـة مر تعديات الاشقياء للبلام، وقد وصلنا الجبل المشار اليه وقت الظهيرة وقد اشتدت وطأة الحرارة حتى بلغت الدرجة الخامسة والأربعين، وقد علا ضجيج الحجيج قائلين «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» ولما رأيت الناس يأتون من كل فج عميق إلى عرفات تذكرت حينئذ يوم الحشر وأهوال يوم القيامة، وكيف أن الناس في ذلك اليوم العصيب يحشرون فمنهم الراكب ومنهم الماشي إلى غير ذلك حسب الأعمال حتى أن البعض منهم يكون كالقمر المنير، ومنهم من يأتي أسرع من البرق ومنهم من يأتي زحفاً وهم يحبون إلى الله تعالى عساه أن يحاسبهم حساباً يسيراً في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فما كان مني عند مشاهدة هذه الحال إلا أن ألتجأ إلى الله ذي الجلال والإكرام سائلاً منه تعالى أن يقبل حجتي ويصفح عن حوبتي ويغفر لي تلك الآثام، وقد عممت في دعائي جميع الإسلام امتثالاً لأمره عليه الصلاة والسلام، حيث يقول ﴿إذا دعوتم فعمموا﴾ وفي رواية ﴿إذا دعوتم فاجمعوا فمن فمن تجمعون من تنالو بركته﴾ ولا تسل في ذلك الموقف الرهيب عن فيضان الدموع والذلة والخضوع بين يدي علام الغيوب وغفار الذنوب وستار العيوب جل وعلا وقد بقينا على هذه الحالة إلى أن آذنت الغزالة بالغروب وإذا بعمود من نور امتد في الأفق وبقي ساعة فأيقنت أنه تقدست أسماؤه تجلى على أهل عرفات

بالرحمات وعمران المطيئنات وظهر نسيم أحلى من الشفاء على القلب السقيم وانفتحات لإلهيه شملت جميعاً، وهنا تجدد الدعوات سائلين منه تعالى جمع كلمة المسلمين ونصرهم على أعدائهم الكافرين.

الفصل التاسع والعشرون

في حكمة مشروعية الحج

ولا يخفى أن هذا الاجتماع العظيم المؤسس من جميع الأقطار والمقتدي بإمام واحد يتحرك بحركته ويسكن سكونه، فيه إشعار بأن الأمة الإسلامية يجب أن تكون كتلة واحدة حتى لا تتعدى عليها الأعداء إذ أن الشارع سبحانه وتعالى لا يعود عليه نفع من هذا الاجتماع العظيم بل يعود على المجتمعين وليس المقصود من تلك الشعائر مجرد الوقوف والطواف، إنما هي الأمر يعود عليه معشر المسلمين من التعارف والتآلف وبث الشكوى والسعي الحثيث للوصول إلى سعادتنا الدنيوية والأخروية، وتذكير الأبناء بسيرة الآباء الصالحين، شكراً لله تعالى على تلك النعم التي لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[61] هذا وقد صارت الحجج تابعة لنصر الإمام، ونعيش نحن المرضى نتقلب على جمر الانتظار لعلنا نذهب إلى جمع أعني

---

[61] سورة إبراهيم، الآية 34

مزدلفة، التي اجتمع فيها آدم عليه السلام بزوجته حواء رضي الله عنها وازدلف إليها، أي دنا منها. حيث أن المبيت بها سنة، ولكن مع الأسف لم نتمكن من أدائها لعدم قدرتنا على الذهاب. حيث كنا تحت أمر الصحة المأمور بالمبيت في جبل عرفات لتفقد أحوال المشاة الضعفاء التي لا تستطيع المسير فيما هناك إلى الفجر وبعد صلاة الصبح ذهبنا إلى المزدلفة وأقمنا فيها قليلاً ثم منها إلى منى حيث نزلنا في قصر دائرة الصحة العامة لها في وأقمنا فيه ثلاث ليال ولم نتمكن من رمي الجمرات بسبب المرض، وهو عذر شرعي يسقط به وجوب رمي الجمرات كما سيأتي في بيان المناسك إن شاء الله تعالى[62] وقد مرض صاحبنا السيد فائق الأنصاري، حيث كان نزيل الساحة الفيحاء المنسوبة إلى ماجد مكة المكرمة المشار إليه وقد اهتم حفظه الله تعالى بخدمته واحضر له طبيباً حاذقاً من المغاربة كان حضر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فأعطاه علاجاً شفي على إثر تعاطيه فوراً ثم رجعنا إلى مكة المكرمة وقد استأجرت ستة شخص تحملني كي أطوف طواف الزيارة، أعني طواف الإفاضة، فحملوني على كرسي يسمى الشبرية، وقد حضر المطوف معهم فطافوا بي سبعة أشواط بالكعبة المشرفة ثم أرادوا أن يذهبوا بي إلى المسعى قبل صلاة ركعتي الطواف الواجبة، فأمرتهم بإنزالي

---

(62) لم نذكر الفصل المخصص لمناسك الحج لأنه خارج عن موضوعنا، ولأنه متوفر في الكتب المتخصصة.

كي أصليهما فصلوا، وقد صليتهما وأنا جالس إذ لا قدرة لي على القيام، ثم بعد ذلك ذهبوا بي إلى المسعى فسعوا بي من الصفا إلى المروة سبعة أشواط، وإنما سمي الصفا بهذا الاسم لجلوس آدم صفوة الله عليه، وإنما سميت المروة بالمروة لجلوس المرأة حواء عليها عليهما السلام؛ وفي ذلك اليوم عزمنا على الذهاب إلى جدة فكلف السيد فؤاد بك صاحبنا السيد فائق الأنصاري أن يخبرني إذا كان في استطاعتي مقابلة جلالة الملك لوداعه فأجابه بأنه لا قدرة للفاجر على ذلك، وإن سعادتك تقوم مقامه في أداء ذلك الواجب، ثم ذهب بالرفيق المشار إليه لوداع جلالته وبعد صدور الإذن تشرف رفيقي المومأ إليه بالمثول بين يديه فأذن له بالجلوس، ثم طلب منه الدعاء في بيت المقدس فأجابه بأن ذلك لابد منه إن شاء الله تعالى، وعند إرادة الذهاب قال لجلالته أرجو أن توصيني بوصية ينفعني الله بها، فقال له «احفظ الله يحفظك». وهذا مما يؤيد أن جلالة الملك من الواقفين على علم الحديث الشريف حيث ورد «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

الفصل الثلاثون

في السفر من مكة المكرمة إلى جدة وبيان مكارم الأخلاق التي تحلى بها الشيخ محمد نصيف حفظه الله تعالى لوفود بيت الله الحرم وأدامه ملجأ للإسلام

وفي صباح يوم الجمعة المبارك الموافق الخامس عشر من الشهر المذكور أحضر الموصوف السيارة عند باب مستشفى فحملني أربعة من الرجال ووضعوني فيها وقد ركبت أنا والحاشية قاصدين ثغر جدة مستعيناً بالله سائلاً منه وصولنا بالسلامة وإذ أقبلت علينا قابلنا مرحباً بنا النسيم الذي يشفي العليل فانشرحت بنا الصدور ووجدت علائم الصحة تزداد شيئاً فشيئاً ولما وصلنا إليها ذهبنا إلى ساحة المكارم الفيحاء دار مولانا الجليل الشيخ محمد نصيف أحد مشاهير رجال الأراضي المقدسة الحجازية، فنزلت من السيارة بدون مساعدة أحد غيره تعالى، وصعدت الدرج الموصل إليها فاستقبلنا صاحبها الهمام بوجهه البسام وكان وصولنا إليها بعد انقضاء صلاة الجمعة فأمر لنا بإحضار الطعام وقال تفضلوا باسم الله فجلست على المائدة وكأنه لم يكن معي شيء من المرض، فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً ووجدنا كثيراً من الأضياف من بلاد الغرب وبلاد مصر منهم القاضي الفاضل الشيخ أحمد أفندي شاكر نجل العلامة الشهير والكاتب النحرير الشيخ محمد شاكر الحسيني وكيل مشيخة الجامع الأزهر سابقاً، وكذلك نجله الفاضل السيد

محمود أفندي مدير المدرسة الأميرية في جدة، وقد فهمت من القاضي المومأ إليه أنه الآن قاض في الزقازيق وأن قاضيها السابق الشيخ أمين أبا الفضل صار تعيينه مفتشاً في وزارة الحقانية وأن سعادة أخيه السيد أحمد بك أبي الفضل هو الحاكم الإداري هناك وقريباً يصير ترفيعه لإحدى المديريات، فسررت جداً من هذه البشارة لكونهما نجلي شيخنا العلامة المرحوم الشيخ محمد أبي الفضل شيخ الإسلام في عصره وقد رجوته أن يبلغ سلامي لسعادته فوعدني بذلك. هذا وقد أقمنا في رحاب الشيخ المشار إليه يومين، فظهر لنا أنه مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية لحجاج بيت الله الحرام خصوصاً الذين لا طاقة لهم على النزول في تلك المنازل المسنونة للمطوفين، الخالية من وسائل الراحة، والتي تفتقر إلى أن يلاحظها مدير الصحة بعين العناية حرصاً على صحة وفود بيت الله العتيق.

وبيان ذلك أنه لما وصلنا جدة ونحن قادمون إلى الديار المباركة قابلنا وكيل المطوف وأنزلنا فيها لأجل أن نستريح من وعثاء السفر فما قدرت أن أقيم فيها سوى ساعتين من الزمن وزمعت الذهاب إلى مكة المكرمة كي نتخلص من تلك الأوساخ المنافية لحديث «النظافة من الإيمان» وكان رفيقي السيد فائق المشار إليه خبيراً بما حصل لنا من المشقة في تلك الساعتين حضرة مولانا مجيد مكة المكرمة الشيخ ماجد أفندي الكردي، فأشار إليه أنه عند سفركم إلى القدس

الشريف سأكتب لي صديقي في جدة الشيخ محمد نصيف الشهير والمدني في حب آل السعود الكرام حفظهم الله جميعاً من الآفات، إنه سميع مجيب وقد فعل. فإنه حفظه الله تعالى عند وداع السيد الأنصاري لحضرته صحبه بكتاب لحضرة صديقه الشهم النصيف ضمن تحرير كأنه نقطة من غدير أو زهرة مقتطفة من روضة. للنصير يوصيه بنا خيراً. هذا وبينما كنت جالساً في ديوانه بعد صلاة العصر من اليوم السابع عشر من الشهر المذكور إذ دخل علينا حضرة الأديب الهمام السيد يوسف أفندي يس وقد أدّى تحية الإسلام فقابلناه بأحسن منها امتثالاً لما صرح به القرآن الكريم ﴿وإذا حُيِّيتُم بتحيّة فحيُّوا بأحسنَ منْها أوْ رُدُّوها﴾ [63] ثم إن حضرته صار يذكر محاسن ولدنا العلامة الشيخ محمد أمين العوري عضو محكمة الاستئناف الشرعية العليا وأمين فتوى فلسطين قائلاً: إنه أستاذي حينما كنت تلميذاً في كلية صلاح الدين الأيوبي بالقدس، وقد استفدت من فضيلته علم الأحوال الشخصية استفادة لا تنسى. فأرجوك أن تبلغ جزيل سلامي لحضرته، وأن تبث لواعج أشواقي لسيادته، وإنني أرغب أن يأتينا في العام المقبل لأداء فريضة الحج الشريف كي نتمتع بخدمته، ثم ودعني وانصرف. بارك الله فيه وأكثر في الأمة من أمثال النجباء وأيد مولانا مليكه العدل بروح منه.

---

(63) سورة النساء، الآية 86

وفي اليوم الثامن عشر منه ودعنا حضرة رب المكارم مولانا الهمام النصيف فإن قال قائل إن التصغير يستفاد منه التحقير والشيخ المشار إليه أجل من أن يحقر، كيف لا وهو المشار إليه بالبنان والظاهر ظهور الشمس للعيان، وهو المتبع ملة إبراهيم حنيفاً من بين الأديان، والماشي على سنته في خدمة الضيفان. قلت في الجواب إن التصغير قد يكون للتعظيم كما في هذا المقام، ألا ترى إلى أن المحب الولهان لا يمكنه أن يحقر محبوبه، ومع ذلك فقد قال الشاعر

ما صغرت حبيبي من التحقير   ولكن نعلت اسم شيء بالتصغير

فالنصيف أعذب من النصف كما لا يخفى على أولي الإنصاف النبلاء على أنه يحتمل أن يكون نصيف بوزن فعيل من صيغ المبالغة، وهي خمسة فعال، ومفعال، وفعول، وفعيل وفعل مأخوذ من الإنصاف وكثير النصفة كما تقتضيه صيغة المبالغة حفظه الله تعالى ولعل ذلك هو الصواب

الفصل الواحد والثلاثون

في ركوب سفينة الطائف والتوجه إلى الطور

ثم توجهنا من تلك الرحاب الرحيبة المنسوب لعلي الحسب النجيب المشار إليه إلى البحر حيث منطبق سفينة الطائف الموصوفة بالطائف، شاكرين للمولى تبارك وتعالى حيث وفقنا لأداء تلك الفريضة واطلعنا على أعمال الحكومة العربية المنطبقة على الشريعة الإسلامية ولا غرابة في ذلك

فالعدل من معدنه لا يستغرب، إذ من بلاد الحجاز والعرب شرقت أنوار العدل وطمست معالم الجور والضلالة وتأيد التوحيد وذل جبل الشرك العنيد، حتى قال قائلهم بعد عتاق الإسلام

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

﴿وقُلْ جاء الْحَقّ وزهق الْباطلُ إنّ الْباطلَ كَانَ زهُوقًا﴾[64]

ولما علونا على ظهر القمرة وهبّ علينا نسيم السرور مبشراً لنا بذهاب آلام الجسم الذي لم يقدر على حر الحجاز، مع أن الروح متعلقة بحب تلك الديار والآثار المباركة حتى أن فراقها لها تبعاً للجسم كان شديداً عليها من عذاب النار امتحنا بما الشهية فكنا نأكل الأسماك الحوية وغير ذلك من أنواع الطعام البرية والبحرية وغير خاف على كل ذي فطنة وروية أن زمن السرور قصير ولو طال.

عوام إبانه كل يوم في قصر ووقت زمراضه في الطول كالحج

ثم وصلنا الى طور سيناء حيث منّ الله تعالى على عبده موسى الكليم بالرسالة والتكليم، على نبينا محمد وعليه الصلاة والسلام فرست تلك السفينة على ساحله ثم أقبل علينا مفتش المحاجر الصحية سعادة السيد مسبري بك المتحلق بالأخلاق المحمدية بادئاً لنا بالتحية ومتأدباً بالأدب

---

(64) سورة الإسراء، الآية 81.

الجمعية المصرية، وقد حضر بمعيته صاحب العزة الدكتور سعيد بك طليع ابن عم رشيد بك طليع المشهور، والوصي الغيور، وأوصاه بنا خيراً.

وقد أمر أن تكون سيارته الخاصة به تحت تصرفنا كما أنه أمر لنا بغرفة ممتازة بالمحجر وقد عاملنا معاملة استثنائية تنطبق على أخلاقه الكريمة الرضية، وحديث «أنزلوا الناس منازلهم» ثم كان يأتي إلينا زائراً متفقداً أحوالنا جزاه الله عن وفود بيت الله الحرام خيراً وأيده بروح القدس آمين. ثم إنه بعد أن أقمنا ثلاث ليال في المحجر الصحي أقبلت علينا السفينة العباسية تحمل جماً غفيراً من الحجاج سلمتهم إلى المحجر الصحي ثم امتطينا جوادها ولكن بقي ممن أقام ثلاثة أيام في المحجر سبعون حاجاً لم يوجد لهم محل فيها فتأخروا منتظرين الفرج من الله تعالى ثم إنها تحركت بالركاب مساء، وفي الصباح وافينا السويس أحد الثغور المصرية الحمية

الفصل الثاني والثلاثون

في بيان ما حصل لنا فيها

وهناك صدر الأمر ببقائنا في المحطة حتى يصل إلينا المتأخرون ومع هذا منعنا من الاختلاط بالأهالي غير أن ناظر المحطة الإنكليزي عمل معنا معروفاً جليلاً، حيث

خصص لساعي وعقيلته حجرة مستقلة أسأله تعالى أن يوفقه لهدايه لأقوم طريق والتحلي بحلل التوفيق إنه سميع الدعاء.

هذا ولما أن دخلت الغرفة وخلوت بنفسي تذكرت أن الديار المصرية كانت تحت حكم الفراعنة الذين ادعى أحدهم الربوبية ادعاءً باطلاً وهو فرعون موسى عليه السلام حيث ﴿قال أنا ربكم الأعلى﴾ [65] واستدل على ذلك بدليل باطل فقال ﴿أليس لي ملكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي أفلا تُبصرون؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يُبين﴾ [66] يريد بذلك أنه أعظم من موسى رسول الله الذي أرسله الله تعالى لإنقاذ بني إسرائيل من عبودية الأقباط [67] الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويقولون إنا فوقهم قاهرون، وقد أيد الله رسوله موسى بأخيه هارون حيث قال ﴿قال سنشدُّ عضدك بأخيك ونجعلُ لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [68] وقد أظهر الله على يديه خوارق العادات حتى أحيا الجماد فجعل العصا حية تسعى، ولا ريب في أن معجزته أعظم من

---

(65) سورة النازعات الآية 24

(66) سورة الزخرف الآيتان 51-52

(67) لم يكن هذا الاسم معروفاً أيام الفراعنة فتسمية الأقباط ظهرت في فترة مسيحية.

(68) سورة القصص الآية 35

معجزة المسيح عليه السلام الذي أحيا الموتى بإذن الله تعالى على أنه مع إتيان موسى بالمعجزات الباهرات، لم يؤمن به ولم يذعن للأمر الإلهي وبقي مصراً على كبريائه

وفي الحديث القدسي ﴿الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في ردائي أو إزاري ألقيته في النار﴾ وفي رواية «قصمته ولا أبالي، ولما اشتدت وطأته على أهل الإيمان دعا الله موسى وهارون فقالا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [69] فقال الله لهما ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [70] وهم الذين يستعجلون الاستجابة فيقولون دعونا فلم يستجب لنا. ثم بعد أربعين سنة من تاريخ الدعاء أغرق الله فرعون وملأه ونجى بني إسرائيل من شرهم.

وبيان ذلك أنه لما دنا وقت هلاك فرعون وملأه أمر الله رسوله موسى عليه السلام بأن يذهب ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليلاً، فامتثل أمر مولاه وسار بهم متوكلاً على الله، ولما طلع الفجر لم ير القبط أحداً منهم فأخبروا بذلك عدو الله ورسوله فأمر بإتباعهم فتبعوهم وكان في مقدمة

---

(69) سورة يونس، الآية 88

(70) سورة يونس، الآية 89

الحمد، ولما رأت بنو إسرائيل جيش عدوهم لاحقاً بهم اشتد خوفهم وقالوا لموسى عليه السلام هذا البحر أمامنا وهذا الجيش من خلفنا فماذا نصنع؟ فأوحى الله إلى موسى أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخف دركاً ولا تخشى، فضربه بعصاه فكان كل فرق من المياه كالطود العظيم فدخله مع قومه وخرجوا منه إلى البر سالمين ولما وصل فرعون إلى اليمّ قال لقومه انظروا إلى البحر فإنه انفلق من هيبتي فدخلوا فيه مسرعين فغشيهم من اليم ما غشيهم، وأضل فرعون قومه وما هدى، ولما أدركه الغرق وتحقق الموت قال آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقال له جبريل عليه السلام ﴿آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[71] يعني بذلك أنه لا تنفعه توبته عند مشاهدة العذاب فكان من المغرقين، ومع الأسف فبنو إسرائيل بعد مشاهدتهم هذه المعجزات الباهرات مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام بعد تلك النعم الجزيلة التي أنعم الله بها عليهم إكراماً لنبيه الكليم: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال لهم عليه السلام ﴿إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[72] رداً عليهم في طلبهم اتخاذ إله لهم غير الله تعالى الذي عمهم بالإحسان

---

(71) سورة يونس الآية 91

(72) سورة الأعراف 139

وفضلهم على أهل ذلك الزمان، لاسيما وقد من عليهم بالخلاص من رق العبودية والذلة التي كانت المصرية القاصية عليهم. إن هذا لشيء عجيب فانظر رحمك الله إلى هؤلاء القوم كيف قابلوا نعم الله بالكفر والعصيان مع أنهم كان يجب عليهم أن يقابلوها بالشكر والإذعان ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[73] على أنهم عصوا الله تعالى حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقالوا لرسوله موسى عليه السلام إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون مع كونهم كانوا ستمائة ألف كما قيل. فأوحي الله إلى نبيه أن يخبرهم أنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض وأمره بأن لا يحزن عليهم نظراً لفسقهم بعدم امتثال أمر الله مع كون نبيهم بين أظهرهم حيث قال ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

أما الأمة المحمدية فإن أولها وهم من الصحب الكرام، حيث كانوا في غزوة بدر التي كانت مبدأ عز الإسلام وقد شاهدوا أن عدد المشركين أكثر من عددهم وذلك أنهم كانوا ألفاً ومائتي مقاتل من صناديد كفار قريش وعظمائهم بخلاف الصحابة الذين كانوا مع المصطفى عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر حيث كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لا غير، وقد استشارهم رسول الله ﷺ كيف يصنع تطييباً

---

(73) سورة إبراهيم، الآية 7

لقلوبهم وتعليماً للأمة المسورة. ولما سمع ذلك أحدهم وهو المقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنه قام على قدميه وخاطب رسول الله ﷺ بقوله: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول لك اذهب فقاتل ونحن بين يديك وعن يمينك وشمالك. والله لو أمرتنا أن نذهب معك إلى برك الرماد لمضينا، ولو أمرتنا أن نقطع معك هذا البحر سباحة لفعلنا فسرّ بذلك رسول الله ﷺ.

فانظر رحمك الله أيها القارئ إلى الفرق بين أول الأمتين الإسلامية واليهودية واحكم بينهما بعدل وإنصاف.

الفصل الثالث والثلاثون

في التوجه إلى محطة القنطرة التي يذهب منها إلى فلسطين، وما حصل لنا في ذلك

ثم يوم الاثنين الموافق خمسة وعشرين من الشهر المذكور ركبنا القطار متوجهين إلى القنطرة فوصلناها بعد صلاة العصر، وبعد أداء الصلاة ذهبنا إلى بهو المحطة فوجدنا فيه حضرة الفاضل السيد سليمان أفندي الفاروقي، وبعد الاستراحة حصل بين السيد الأنصاري وبينه مناظرة جليلة ومداعبة جميلة سررنا منها فأيدت الرفيق الموما إليه على الأخ الفاروقي النحوي تاج هام الخطباء الكرام فشق عليه الشقاق ورجع فألقى إلينا بمقاليد الوفاق حفظه الله تعالى

وبما أن تلك المداعبة لا يجوز إفشاؤها شرعاً جعلناها تحت طي الخفاء سائلين منه تعالى جميعاً دوام المودة والصفاء إنه مجيب الدعاء.

هذا ثم في الساعة السادسة بعد غروب الشمس تحرك القطار متوجهاً نحو الديار المقدسة، فوصلنا إلى محطة اللد بعد طلوعها، فإذا بشقيق الخليفة السيد سليمان أفندي بركات وابن أخته وندنا مصطفى فاضل وأهله والأحفاد مع المستقبلين. وبعد أن سلم علينا وهنأنا بسلامة الوصول استلم منا والدته ووضعها في السيارة وذهب مسرعاً إلى القدس وبقينا في القطار، وأقبل علينا شيخ الحرم القدسي والمعهد الأسمى الشيخ عارف أفندي يونس الحسيني من آل البيت الكرام ومعه ثلة من الأنصار أخص منهم بالذكر الشيخ شحادة أفندي والد الرفيق المشار إليه، وابن عمه الشيخ حسين أفندي من آل الأنصار الكرام وشرطي المسجد الأقصى السيد محمود أفندي من آل بيت العسلي الكرام، وبعد الاستراحة توجهنا إلى القدس الشريف فوصلنا إلى محطة بتير القريبة منها، وإذا بالسيد إسماعيل أفندي الأنصاري خال رفيقنا المومأ إليه ينتظر قدومنا فابتهجنا بمقدمه وقد عم الجميع منا السرور.

الفصل الرابع والثلاثون

في بيان أسماء بعض المستقبلين لنا في محطة القدس الشريف

ثم واصلنا السير حتى وصلنا محطة القدس، فإذا هي على رحبها تضيق بالمستقبلين من المسلمين ووداء الزعيم العربي عضو المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى صاحب السعادة وعصمر لسيادة الحاج سعيد أفندي الشوا من آل عميل الكرم يتقدم الجمهور وعم ثم أصحاب الفضيلة و مزايا الفائضة الجليلة تحيط بجانبه الفاني الخاصة الهالة بالقمر أخص منهم بالذكر أعاظم الفضلاء وأكابر الشرفاء ولدنا الشيخ محمد أمين الحسيني عضو المحكمة الاستئنافية الشرعية العليا وأمير فتوى فلسطين، ومحبوب القلوب الشيخ توفيق أفندي الطيبي مفتش المحاكم الشرعية، والأخ في الدرس الحسيب النسيب مأمور أوقاف القدس الشريف الشيخ بدر أفندي يونس الحسيني من آل بيت النبوة الأطهار وولدنا الشيخ عبد الرحمن أفندي العلمي من آل بيت العلمي الحسني الكرام والأخ الحاج يوسف أفندي وفا من الأخيار والسيد محمود أفندي من أصحاب المكارم الأبرار كلاهما من آل بيت النبوة ومن أهل الكرم والفتوة من آل بيت الجاني الأعاظم. أما أصهاري آل بيت بركات الكرام فقد كانوا في حفلة الاستقبال جميعاً، أخص بالذكر منهم الفاضل الكريم الشيخ عبد الباري أفندي وأبناء عمه السيد عبد

أحمد أفندي، والسيد الحاج علي أفندي والسيد مصطفى أفندي، وكذلك لفاضل البين الأخ لخليل السيد موسى أفندي سحويل، والشيخ محمود أفندي الملكي الشهير بأبي كرم من آل بيت العسكري الكرام، وقد حضر ولدنا المشار إليه بالسيارة بعد أن وضع الأهل والأحفاد في الدار. فذهبنا إلى منزلنا في محلة الشيخ جراح، حيث يأتي النسيم من جميع الأطراف فحمدنا الله تعالى وشكرناه حيث ردنا إلى ديارنا سالمين وذلك من أعظم النعم التي لا نحصي ثناء عليها كما قال عليه الصلاة والسلام ﴿سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾ وقد صليت ركعتين شكراً لله تعالى سائلاً من فيض جوده العميم أن يختم لنا بخاتمة السعادة وأن يرزقنا الحسنى وزيادة، وقد قرب ولدنا المشار إليه عند حضورنا إلى البيت قربناً من النعم لله تعالى الذي أقر عينيه بإرجاع والديه إليه مع الصحة والسلامة

الفصل الخامس والثلاثون

في بيان بعض أسماء الذين شرفوا منزل العاجز مسلمين ومهنئين

وبعد أن استرحنا قليلاً، أقبل الأحباب إلى منزل العاجز مهنئين بسلامة الوصول فكان فيمن بادر إلى ذلك جميع أفراد العائلة الكريمة سلالة المرحوم شيخ الإسلام العرس جماعة من آل كنانة الكرام أخص منهم بالذكر الأفاضل

الشيخ عارف أفندي المحامي الشهير والشيخ سعيد أفندي
خطيب المسجد الأقصى وقائمقام التكية العامرة، والشيخ
سعد الدين أفندي خطيب المسجد المشار إليه، ورئيس كتبة
المجلس الإسلامي الأعلى والشيخ الفاضل أحمد أفندي
والسيد عبد الله أفندي، والشيخ نجم الدين أفندي خطيب
المسجد الأقصى وبينما كنت في محادثتي معهم إذ أقبل
أصحاب الفضيلة قاضي القدس الشريف الشيخ رشيد أفندي
الطبي ورئيس كتبة المحكمة الشرعية الشيخ نسيب أفندي
البيطار الحسيني، ومدير الأيتام الشيخ توفيق أفندي
الحسيني، وكاتب الضبط السيد طلال أفندي عابدين ومقيد
الإعلامات الشرعية الشيخ يعقوب أفندي العميفي والفاضل
الهمام السيد عبد الغني أفندي كاملة، والشيخ راغب أفندي
يونس الحسيني والشيخ مصطفى أفندي يونس الحسيني،
والشيخ عبد الرحمن أفندي المغربي ومفتش المعارف حسين
روحي بك، والشيخ إبراهيم فوزي وشقيقه السيد محمد
جمال الدين أفندي، والشيخ أحمد أفندي الغوري، والشيخ
الخليل الحسيب النسيب السيد حسن بك عبد الرحمن الصالح،
ورئيس روضة المعارف الشيخ محمد أفندي الصالح، ورئيس
كتبة الاستئناف الشرعية الحاج سليم أفندي المملوك، والسيد
جميل بك الحسيني والسيد زكي أفندي من آل نسيبه الكرام
والسيد سليمان أفندي من آل بيت الرصاص الكرام، وابن
عمه الحاج خليل أفندي، والحاج موسى أفندي هدبه،

والسيد رضا أفندي الصلاحي والسيد موسى أفندي المهتدي. والسيد شحدة أفندي العرف، والسيد إسماعيل أفندي بمر والسيد حسني أفندي سهوان، والشيخ موسى أفندي البيروتي، والشيخ رحا أفندي الطوري، والشيخ إسماعيل أفندي الخطيب المحامي النبيل. والسيد إبراهيم أفندي كمال المحامي المشهور، والشيخ عطاء الله أفندي السروري، والشيخ محمد صالح أفندي أبو علوى المحامي الشرعي، والعلامة الشيخ إسماعيل أفندي حمدين. والفاضل الشيخ عبد الرحمن أفندي المالكي، والمكرم الشيخ صالح أفندي اللفتاوي، وولدنا النجيب الأديب الشيخ محمد أمين أفندي الأنصاري من سدنة صخرة الله المشرفة والمسجد الأقصى المنيف ومدير المكتبة الخالدية بالقدس منذ أسست سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف [هجرية، الموافق سنة 1900م] والشيخ محمد أفندي القصب من السدنة أيضاً، وكذلك الشيخ محيي الدين أفندي الأنصاري والسيد عارف أفندي الموقت، وكبير سادات السمية بالقدس مولانا الجليل السيد محمد يوسف أفندي من آل البيت الكرام ومدير محاسبة الأوقاف المتحلي بمكارم الأخلاق والآداب وأخي في الدرس السيد عارف حكمت[74] أفندي الهمام، وأبناء عمه

---

[74] أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت بن إسماعيل رائف باشا الحسيني نسبه إلى بيت النبوة من نسل الحسين بن علي، قاضي تركي المشـ ...وس قضاء القدس 1231هـ اشتهر بخزانة مكتبته في المدينة المنورة من خوف النفس المخطوطات

الأحلاء احربين بالاحترم لحاج حليل أصدي وشله الشهم الكريم الوطى الغيور علي لهمة لسيد فحري بك المحترم، والسيد شكيب أفندي الأديب الأريب ورب لمكارم الغيور والهمام الحيل المشهور السيد حودت أفندي الفاصل لكريم، حميعهم من سلالة المرحوم الأمير باصر الدين الشاشيبي باظر احرمين الشريفين في عصره والحاح عمر أفندي من آل صهبوب الكرام، ثم عند عروب شمس دلك اليوم أشرقت طلعة صاحب لسماحة مفتي الديار القدسية ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى السيد محمد أمين أفندي الحسيني المنوه باسمه سابقاً يتقدم ثلة من الأعاظم، وقد كان غائباً عن القدس وهم أصحاب السعادة السيد أحمد حلمي باشا [75] مراقب أوقاف فلسطين العام، والسيد عبد السلام أفندي الشكر من آل الحسيني الكرام، وابن عمه السيد محمود أفندي لراغب الحري بالاحترم ولسيد مصطفى كامل نجل ولدنا العلامة المرحوم السيد محمد كامل المنوه اسمه سابقاً، وقد كان المحلس غاصاً بكثير من الأعيان وهم لسيد اسحاق أفندي ونجله حطاطا حكومة فلسطين السيد عبد القادر أفندي من آل بيت الشهابي الكرام، وكذلك السيد رشيد أفندي والسيد عبدا لقادر أفندي من آل لعميمي الكرام

---

[75] هو احمد حلمي باشا عبد الباقي (1878 – 1963) اقتصادي وسياسي فلسطيني، رئيس حكومة عموم فلسطين من 1948 إلى 1963 .

والسيد عبد العزيز أفندي الشاكر الحسيني، وابن عمه السيد سعيد افندي.

ثم بعد استراحته قليلاً شرع حفظه الله يسألني عن أحوال الحجاز وأعمال بطل الإسلام صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز آل فيصل بن السعود الكرام وهو أعلم بها مني حيث وفد على جلالته بطلب منه عند عقد المؤتمر الإسلامي الأول بمكة المكرمة غير أنه بارك الله فيه يريد بسؤاله هذا أن يعلم الحاضرين ما عليه ذلك الملك الجليل من خدمة الشريعة الغراء وإعلاء كلمة الله ليدحض بذلك ما يشيعه أعداؤه الذين يتربصون به الدوائر عليهم دائرة السوء، والمقصود من تلك الإشاعات الباطلة تنفير المسلمين عن الالتفاف حول جلالته لعالي فشرحت شرحاً تلك المناقب والأعمال التي يفتخر بها الإسلام في هذا العصر، وقد أعطيت ذلك المقام حقه حيث شرحت ذلك لسماحته وللحاضرين شرحاً وافياً تنشرح منه صدور المؤمنين وتقر بذلك أعينهم، ليبلغ منهم الشاهد الغائب سائلاً منه صدور المؤمنين وتقر بذلك أعينهم ليبلغ منهم الشاهد الغائب سائلاً منه تعالى أن يعز العرب والإسلام على أيدي ذلك الإمام وأنجاله الأمراء الفخام ووزرائه الكرام، وأن يديم دعائم ذلك العرش السعودي الساعي في توحيد كلمة الموحدين وجمع شملهم المتفرق، ولم شعثهم وما ذلك على الله بعزيز

وفي ثاني يوم لقدوم شرف أخونا في الدرس فضيلة النفس العلامة المتصل المتحلي بمحاسن الخصال الرحالة الشهير العادل في أحكامه وقل أن يكون له نظير صاحب السماحة والمجد الشامخ الشيخ خليل أفندي جواد من آل بيت المكارم الأجواد سلالة سيف الله خالد رضي الله عنه فاتح دمشق الشام قدس سره العالي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية العليا بفلسطين حفظه الله تعالى من الآفات، والقاضي الشيخ سيف الدين الخمش حاملاً تحرير من لدن العلامة الجليل الشيخ إسماعيل أفندي الحافظ عضو محكمة الاستئناف المشار إليه يهنئ فيه بوصولي سالماً للديار ويطلب من الفاخر الدعاء لفضيلته بالشفاء، ثم بعد أن تشرفت بحضور بالدات، وقد حضر من مدينة السيد الخليل عليه السلام أصحاب الفضيلة القاضي الشيخ سليم أفندي العصين، ورئيس كتبة المحكمة الشرعية الشيخ محمود أفندي الحصوري، والشيخ عارف أفندي الشريف، والشيخ يوسف أفندي زلوم، والشيخ محمد علي أفندي الجعبري بارك الله فيهم، حيث كلفوا أنفسهم مشقة السفر والحضور عند هذا الفاخر وهذا من مكارم أخلاقهم، أسأله تعالى أن يكافئهم على ذلك، وقد حضر السيد عادل أفندي شيخ الزاوية المولوية والشيخ يعقوب أفندي البخاري شيخ الزاوية النقارية، والشيخ محمد أفندي شيخ الزاوية الأدهمية نجل العلامة المرحوم أخي في الدرس الشيخ محمد طاهر أفندي من آل البديري الكرام

وقد حضر بعد صلاة العصر من ذلك اليوم دوحة الأدب الغض القانوني البارع ذو اليد الطولى في علم الحقوق صاحب السعادة وعنصر السيادة تحفة آل أبي اللطف الحسيني السيد علي أفندي من آل جار الله الكرام عضو محكمة الاستئناف النظامية في فلسطين.

وفي اليوم الثالث من القدوم حضر رب السيف والقلم الكاتب القدير والمجاهد الكبير سعادة الأمير عادل أرسلان والفاضل السيد محمد علي أفندي الطاهر صاحب الشورى ناشر الويته للدفاع عن الأمة العربية خصوصاً الفلسطينيين، وصاحب الخيرات الشهم الكريم الوطني الغيور السيد عبد الحميد أفندي شومان[76]، وقد حضر صاحب الصراط المستقيم الفاضل الشيخ عبد الله أفندي القلقيلي، وكذلك رئيس الكتبة بالمحكمة الشرعية بالرملة الشيخ محمد أفندي الدحني وعدد من أقاربه أهالي بيت دجن وأهالي صرفند، وقد حضر السيد محمد أديب أفندي حسن وأشباله الأفاضل، الفاضل الشيخ شاكر أفندي، والسيد عز الدين أفندي، والسيد سعيد أفندي من آل صلاح الكرام، وقد حضر رئيس بلدية البيرة السيد عبد الله أفندي جودة، والسيد إبراهيم أفندي الداود، وكذلك الشيخ أحمد أفندي الريماوي مع جمع من أفراد عائلته الكريمة الجليلة، والسيد محمد

---

[76] – مؤسس البنك العربي الشهير

شاكر أفندي الحسيني وسعادة العميد عارف باشا الدجاني من أعيان القدس الشريف، وكذلك حضرة الطبيب الماهر الدكتور السيد حسام الدين أفندي من آل بني السعود الكرام، كما انه حضر احمد مصطفى الشامي والشيخ عبد الرحمن حسين حبيب ونجل أخيه الشيخ الناجي والشيخ رشيد علان من وجوه قرية بيت عور التحتا حفظهم الله تعالى، وقد بقي كثير من الوفود الذين جاؤوا مهنئين من قرى القدس الشريف، حيث دامت التهنئة بسلامة وصولنا شهراً كاملاً وبما أن المقام لا يسع أسماء الجميع فنحن ندعو الله تعالى ان يوفقهم للخيرات والأعمال الصالحة إنه قريب مجيب، وكان ختام المهنئين لنا بسلامة الوصول والدنا صاحب الفضيلة مفتي السادات الشافعية في الديار القدسية الهمام اللوذعي الألمعي حضرة الشيخ حسن أفندي أبي السعود وكان سبب تأخره أنه كان مريضاً فلما شفاه الله تعالى بادر لزيارتنا مراراً، فجزاه الله عنا خيراً إنه سميع الدعاء.

أهم الأماكن والأعلام